تلاعب الشيطان بعقول القُبوريين

جزء منتقى من كتاب

«إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»

للعلامة شمس الدين ، محمد بن أبي بكر الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية (**٦٩١ – ٧٥١ هـ**)

انتقاه وعلق عليه

ماجد بن سليمان الرسي

جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ

مقدمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فإن الله خلق الخلق ليعبدوه ولا يشركوا بعبادته شيئا ، قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1] ، وقال ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰها واحدا سبحانه عما يشركون﴾[2]، وبهذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[3].

وقد حذر الله ورسوله من التشريك بينه وبين خلقه في العبادة ، قال تعالى ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾[4] ، وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى ، قال النبي ﷺ : من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار ، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة.[5]

وقد وقع فئام كثيرة من المنتسبين للإسلام – على مر العصور – فيما حذر الله منه ورسوله ، فعبدوا غير الله ، فمنهم من عبد الأنبياء ، ومنهم من عبد الصالحين ، ومنهم من عبد قبورهم ، وتوجهوا لهم بأنواع العبادات الظاهرة كالدعاء والذبح والنذر والطواف وغير ذلك ، كما توجهوا لهم بأنواع العبادات القلبية الباطنة من خوف ورجاء ، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله جل وعز.

وقد صنف أهل العلم في موضوع إفراد الله بالعبادة تصانيف كثيرة ، وما ذاك إلا لأهميته وخطورة الإنحراف عنه ، إذ إن صرف العبادة لغير الله محبط للعمل ، مخرج من ملة الإسلام ، قال

---

[1] سورة الذاريات: ٥٦ .

[2] سورة التوبة: ٣١ .

[3] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[4] سورة الزمر: ٦٥ – ٦٦ .

[5] رواه البخاري (٤٤٩٧) ، وأحمد (٣٧٤/١).

الله تعالى ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ ، نسأل الله العافية والسلامة.

ومن هؤلاء العلماء الذين صنفوا في موضوع إفراد الله بالعبادة العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي ، ثم الدمشقي ، الملقب بابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ، نزيل الشام ، فقد صنف كتاب «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» ، ونصر توحيد العبادة نصرا مؤزرا ، ورد على من توجه لغير الله – لاسيما أصحاب القبور – بشيء من العبادات ردا كافيا شافيا ، فجزاه الله خيرا.

وعملي في هذا البحث هو انتقاء كلام ابن القيم المتعلق بهذا الموضوع من الكتاب المذكور ، وترتيبه ترتيبا علميا ، إذ إن كلام ابن القيم مفرق في مواطن بين المجلدين الأول والثاني ، كما قمت بتخريج ما وقفت عليه من الأحاديث والآثار ، وضبط نص ما يسر الله ضبطه منها ، والإشارة للفروقات الهامة بين أفضل نسختين مطبوعتين ، كما ضبطت الأقوال العلمية وأحلتها إلى مواردها.

وقد استعنت في إخراج هذا الجزء بالله تعالى أولا ، ثم بالنسخة المنشورة من قِبلِ دار عالم الفوائد بمكة والتي قام بتحقيقها الشيخ الفاضل محمد عزير شمس حفظه الله ، وربما اعتمدت في بعض المواطن على النسخة التي حققها فضيلة الشيخ المحقق علي بن حسن بن عبد الحميد حفظه الله ، والتي أخرجتها دار ابن الجوزي ومقرها مدينة الدمام.

وقد وضعت مقدمة تأصيلية بين يدي هذا الجزء الذي انتقيته ، بينت فيه ما للصالحين من حقوق شرعية ، ليعرف طالب الحقَّ الحقَّ وضده.

وختاما لهذه المقدمة الموجزة ، فلا يفوتني أن أشكر الشيخان محمد عزير شمس وعلي بن حسن بن عبد الحميد حفظهما الله على ما قدَّما من خدمة علمية لهذا الكتاب الجليل لابن القيم رحمه الله.

والله أسأل أن يوفق جميع المسلمين للزوم العقيدة الصحيحة ، وأن يحفظ عليهم عقولهم وأفكارهم ، وأن يعينهم لسلوك طريقة السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك ، حيث أن حفظ الدين من أهم المهمات ، لاسيما العقائد التي هي أعمال القلوب ، قال تعالى ﴿إن السمع والبصر **والفؤاد** كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ ، كما أسأله تعالى أن يعيذهم من مضلات الفتن ونزغات الشيطان ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان الرسي في الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة لعام ١٤٣٤ هجري.

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٦٧٦١

majed.alrassi@gmail.com

www.saaid.net/book

فهرست عام لمحتويات الكتاب

- مقدمة في بيان حقوق الصالحين ، وبيان ما يضادها
- جزء: تلاعب الشيطان بعقول القبوريين
  - تعريف معنى الإله
  - الحاجة إلى التوحيد
  - التوحيد سبب الطمأنينة والأمن
  - الحاجة إلى التوحيد أشد من الحاجة إلى الغذاء
  - وجوه بطلان دعاء غير الله:
    - الوجه الأول: عجز المخلوقين
    - الوجه الثاني: التعلق بغير الله مضر إذا زاد عن الحد والحاجة
    - الوجه الثالث: أن المخلوق المعبود يخذل من عبده يوم القيامة
    - الوجه الرابع: أن المخلوق لا يريد منفعة المخلوق لذاته ، بخلاف الله عز وجل
    - الوجه الخامس: جهل المخلوق المعبود بحاجة المخلوق الذي عبده
    - الوجه السادس: أن المخلوقين لا يهمهم إلا قضاء حوائجهم من معبوديهم وإن أضر أولئك المعبودين
    - الوجه السابع: أن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الإلٰهية وسوء ظن برب العالمين
    - الوجه الثامن: أن الشرك مبني على سوء الظن بالله وأن المشرك متنقص لله في جانب الألوهية وجانب الربوبية
    - الوجه التاسع: إعراض القرون الثلاثة الأولى المفضلة عن دعاء الموتى أو الدعاء عندهم
  - فصل في بيان أمثلة على بُعد السلف عن تعظيم القبور

- نجاسة الشرك وبيان أنواعه
- الذنوب والمعاصي لا تستلزم تنقص جانب الربوبية ، بخلاف الشرك في العبادة
- عشق الصور نوع تعبد لها
- من بركة التوحيد ؛ أن الشيطان ليس له سلطان على الموحد
- الفتنة بتعظيم القبور هي أعظم وأول فتنة فَتَن الشيطان بها الناس عن التوحيد
- إبطال قول من قال إن النهي عن الصلاة في القبور إنما هو لأجل نجاستها
- فصل في بيان مكيدة اتخاذ القبور أعيادا
- فصل في بيان مفاسد اتخاذ القبور أعيادا
- فصل في بيان مخالفة عباد القبور لما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته
- فصل في بيان مفاسد تعظيم القبور
- فصل في بيان الزيارة الشرعية والزيارة البدعية
- فصل في بيان الفرق بين مقصود الزيارة الشرعية ومقصود الزيارة الشركية
- غربة الدين بعد مضي العهد النبوي
- فصل في بيان فتنة الناس بالأنصاب والأزلام
- فصل في تعريف الأنصاب والأزلام
- فصل في بيان أمثلة على الأنصاب وأدلة وجوب إزالتها من قبل السلطان
- فصل في بيان أن النهي عن الغلو في أصحاب القبور ليس فيه غض من حق أصحابها
- فصل في بيان التعظيم الشرعي لأصحاب القبور
- فصل في بيان أسباب الوقوع في الغلو بالقبور
- فصل في بيان أن اتخاذ الوسائط هو دين الفلاسفة الملاحدة
- وجوب إفراد الله بالمحبة المتضمنة لغاية الحب وغاية الذل ، المستلزمة للعبادة
- قصة تحول الناس من التوحيد إلى الشرك منذ عهد نوح عليه السلام إلى بعثة النبي ﷺ

مقدمة في بيان حقوق الصالحين ، وبيان ما يضادها

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، أما بعد:

فقد نظَّم الإسلام جميع شئون الحياة ، سواء فيما يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الآداب أو غيرها ، ومما جاء الإسلام ببيانه أحسن بيان حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، سواء فيما بينهم وبين نبيهم ﷺ ، أو فيما بينهم البين ، وقبل الدخول في بيان حقوق الصالحين فإنه يحسن بيان حقوق نبينا محمد ﷺ على أمته على وجه الإجمال ، ثم بيان حقوق الصالحين من العلماء العاملين ، والعُبَّاد الصادقين ، وما ذاك إلا لأن حقوق الصالحين على الناس متفرعة من حقوق النبي ﷺ عليهم ، لكونهم لولا اتباعهم له لما كان لهم تلك الحقوق ، فأقول مستعينا بالله ومستلهما منه الرشد والتسديد:

إن لنبينا محمد ﷺ حقوقا زائدة على مجرد التصديق بنبوته ، فإن حقوق النبي ﷺ تبلغ سبعة عشرة حقا[1] ، والتصديق بنبوته هو أولها ، وهو حجر الأساس لها ، وباقي الحقوق تعتبر من لوازم الحق الأول ، وبعضها من مقتضياته.

وحقوق النبي ﷺ السبعة عشرة هي:

١. تصديقه فيما أخبر
٢. طاعته فيما أمر
٣. اجتناب ما نهى عنه وزجر
٤. أن لا يعبد الله إلا بما شرع
٥. التحاكم لشريعته
٦. الدعوة إلى دينه وبيانه للناس

[1] حصْر هذه الحقوق بسبعة عشر حصل بالتتبع والاستقراء ، وأرجو أن أكون قد أتيت على أكثرها ، وقد يسر الله بسط الكلام في هذه الحقوق في بحث مطول بعنوان «النصر المؤزر للنبي الموقر ، وهو الدلائل الخمسون على عِظم قدر نبينا محمد ﷺ ، وبيان حقوقه السبعة عشر على الأمة» ، وهو منشور في شبكة المعلومات.

٧. الدفاع عن دينه

٨. الذب عن ذاته

٩. محبته

١٠. الأدب معه ﷺ حيا وميتا

١١. توقيره

١٢. تعظيم سنته

١٣. مجانبة من رغب عن سنته

١٤. الدعاء له ﷺ ، ويتضمن الصلاة والسلام عليه

١٥. القيام بحقوق صحابته

١٦. القيام بحقوق زوجاته

١٧. القيام بحقوق آل بيته

فصل

والقيام بحقوق النبي ﷺ هو المعبر عنه في الحديث النبوي بالنصيحة للنبي ﷺ ، والذي جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: الدين النصيحة.

قالوا: لمن؟

قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.[١]

قال النووي[٢] رحمه الله: وأما النصيحة لرسول الله ﷺ ؛ فتصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمره ونهيه ، ونصرته حياً وميتاً ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ،

[١] أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أبي رقية ، تميم بن أوس الداري رضي الله عنه ، والبخاري تعليقا في كتاب الإيمان.

[٢] هو الإمام العالم ، مفتي الأمة في زمنه ، الفقيه الشافعي الزاهد ، أبو زكريا ، محيي الدين ، يحيى بن شرف النووي ، نفع الله الأمة بتصانيفه نفعا عظيما ، كشرح صحيح مسلم ، و «رياض الصالحين» و «المجموع» وهو شرح «المهذب» ، وغيرها ، انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٣٢٤/١٥) و «تذكرة الحفاظ».

وإعظام حقه ، وتوقيره ، وإحياء طريقته وسنته ، وبث دعوته ، ونشر شريعته ، ونفي التهمة عنها ، واستثارة علومها ، والتفقه في معانيها ، والدعاء إليها ، والتلطف في تعلمها وتعليمها ، وإعظامها ، وإجلالها ، والتأدب عند قراءاتها ، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة أهل بيته وأصحابه ، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك.[1]

طاعة النبي ﷺ وأحوال الناس فيها

ينقسم الناس إلى مسلم وكافر ، فالمسلم هو الذي قبل دين الإسلام وانقاد له ، والكافر هو الذي لم يقبل دين الإسلام ولم ينقد له.

والمسلم ينقسم إلى قسمين صالح وفاسق ، فالصالح هو القائم بما أمره الله به ، المنتهي عما نهاه الله عنه ، وهذا لا يتحقق إلا بالتأسي بالنبي ﷺ في عباداته كلها ، دقيقها وجليلها ، والابتعاد عما نهاه الله عنه ورسوله ﷺ من البدع والكبائر والصغائر.

وإن زاد المرء على هذا ، ففَعل النوافل وترك المكروهات والمشتبهات فهذا من خيار الصالحين ، ومن السابقين بالخيرات ، أما الأول فمن المقتصدين ، نسأل الله من فضله.

وأما الفاسق أو العاصي فإنه مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ولم يأت بما ينقض هاتين الشهادتين كعبادة غير الله أو الاستهزاء بالدين ونحو ذلك ، وإنما أتى ببعض المعاصي التي لا تخرجه من ملة الإسلام ، كالكذب أو شهادة الزور أو السرقة ونحو ذلك.

والأصناف الثلاثة قد جاء ذكرهم في كتاب الله في سورة فاطر في قوله ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾.

والأصناف الأربعة – إذا أضيف صنف الكفار – قد جاء ذكر جزاءهم في الآخرة في القرآن والسنة ، كما في سورة الرحمٰن ، وسورة الواقعة ، وسورة الإنسان ، وسورة المطففين ، وربما جاءت تسمية السابقين بالمقربين في بعض الآيات ، وتسمية أصحاب اليمين بالأبرار في آيات أخر.

وأما عصاة المؤمنين فإنهم تحت المشيئة يوم القيامة ، فإن شاء الله عفا عنهم ، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم ثم يدخلهم الجنة.

---

[1] «شرح صحيح مسلم» ، شرح الحديث المذكور.

وأكثر الناس إما كفار أو من عصاة المؤمنين ، وأما الصالحون والسابقون فقليل ، كما قال تعالى عن السابقين ﴿ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين﴾ ، وقال عن أصحاب اليمين ﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾ ، نسأل الله الهداية.

الصلاح والفسق أمران نسبيان

الصلاح أمر نسبي ، فمن كان فاسقا فإنه لا يقال إنه ليس فيه صلاح البتة ، بل فيه صلاح بحسب ما عنده من الطاعة ، أما الكافر فليس فيه صلاح البتة ، لأن الكفر والإيمان ضدان لا يجتمعان ما تعاقب الليل والنهار.

والإنسان الصالح لا يحب الظهور ولا الشهرة ، لأنه يقصد بصلاحه التقرب لله عز وجل ، وليس التقرب للمخلوقين ، فتجده متواضعا ، مزرٍ على نفسه بالتقصير في الطاعات ، والخوف من المعاصي والسيئات ، يذكر خطيئته ولو بعُد العهد بها ، وينسى حسنته في مقابلها.

حقوق الصالحين

وحقوق الصالحين داخلة في حقوق المسلمين على بعضهم البعض ، وهو توقيرهم والدعاء لهم بالإعانة على الطاعة ، وأن يزيدهم الله من الهدى ، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح.

ومن حقوق الصالحين بعد مماتهم الدعاء لهم بالرحمة والمغفرة ، وأن يتجاوز عن سيئاتهم ، ويرفعهم في درجاتهم ، وإن كان لهؤلاء تراث علمي أو مسجد ونحو ذلك ؛ فإنه يُسعى في نشره وإصلاح ما تلف منه ليجري أجره لصاحبه.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن كان صلاحه قليلا ، أو كان فاسقا ، فإنه حري بالدعاء له بالرحمة والمغفرة ، وقد جاء الأمر بالدعاء لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، غير أن الصالح حقيق بذلك أكثر من غيره ، لأن توقيره والدعاء له بالرحمة من توقير الله ورسوله ﷺ ، إذ لولا قيامه بحقهما لما خُص بمزيد عناية.

فحقوق الصالحين كحقوق غيرهم من المسلمين ممن ليسوا من الصالحين ، ممن ظهر منهم الفسق ، وماتوا مصرين على بعض المعاصي ، فالجميع لهم حق المسلم على المسلم.

تعريف الولي والوِلاية

وقد جاءت تسمية الصالحين بالأولياء أيضا ، أي أولياء الله ، والوِلاية هي المحبة والقرب ، قال تعالى ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ ، فهذان هما شرطا الوِلاية ، جعلنا الله من أهلها.

فأولياء الله هم القائمون بما أوجب الله ، المنتهون عما حرم الله ، كما قال تعالى في وصفهم ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1] .

قال الشوكاني[2] رحمه الله في تعريف الولي والوِلاية:

(الوِلاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والتقرب كما ذكره أهل اللغة ، وأصل العداوة البغض والبعد.

وقال ابن حجر[3] رحمه الله في «فتح الباري»: المراد بولي الله: العالم بالله ، المواظِب على طاعته ،

---

[1] سورة يونس: ٦٢ .

[2] هو الشيخ الفقيه الأصولي محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، اليمني ، درس على شيوخ كثر في فنون كثيرة ، وألف كتبا كثيرة منها «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» ، وفي التفسير له كتاب «فتح القدير» ، وطُبع له مجموع فتاوى بعنوان «الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني» ، وله رد على أرباب القول باتحاد الخالق والمخلوق في كتاب «الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد» ، وغيرها من الكتب والرسائل التي بلغت ١١٤ مؤلفا ، توفي رحمه الله سنة ١٢٥٠ . انظر ترجمته لنفسه في «البدر الطالع» ، وانظر «الأعلام» للزركلي (٢٩٨/٦).

[3] هو الإمام الحافظ أبو الفضل ، أحمد بن علي بن محمد الشهاب العسقلاني الشافعي ، لقب بابن حجر ، وهو لقب لبعض آبائه ، درس على جماعة من الشيوخ ، كل واحد منهم إمام في فنه ، ثم تصدى لنشر الحديث وقصر نفسه عليه ، فشهد له بالحفظ والاتقان القريب والبعيد ، وأجمع من يعتد برأيه على وصفه بالحافظ ، له مؤلفات كثيرة جدا ، سردها تلميذه محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي في ترجمته في كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ، وهي مؤلفات نافعة جدا ، وقد كانت الملوك تتهادى تصانيفه من عظم قيمتها العلمية ، أبرز تلك التصانيف وأنفعها «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ، و «تهذيب تهذيب الكمال» و «تقريب التهذيب» و «لسان الميزان» ، و «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر».

توفي رحمه الله سنة ٨٤٢ وله من العمر تسعة وستون عاما ، وقد أفرد تلميذه السخاوي ترجمته في كتابه «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر».

انتهى باختصار وزيادة يسيرة من كتاب «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني رحمه الله.

المخلص في عبادته.[1]

وهذا التفسير للولي هو المناسب لمعنى الولي الوارد في الآية الكريمة ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

فأولياء الله هم خُلَّص عباده ، القائمون بطاعته المخلصون له).[2] انتهى.

وقال ابن تيمية رحمه الله:

الولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد.

وقد قيل إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات ، أي متابعته لها ، والأول أصح ، والولي: القريب ، يقال: هذا يلي هذا أي يقرُب منه ، ومنه قوله ﷺ : ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فلأولى رجل ذكر.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول: ألا إن آل أبي – يعني فلانا – ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين.[3]

وهذا موافق لقوله تعالى ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

وصالح المؤمنين هو كل من كان صالحاً من المؤمنين ، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله.

ومِثل هذا الحديث الآخر: إن أوليائي المتقون ، مَن كانوا وحيث كانوا.[4] انتهى.[5]

لوازم الوِلاية

لوازم الولاية أمران: الأول: طاعة الله سبحانه وتعالى والحذر من معاصيه.

ثانيا: بغض أعداء الله ومعاداتهم والإنكار عليهم ، قال الشوكاني رحمه الله:

والولي لا يكون ولياً لله حتى يبغض أعداء الله ويعاديهم وينكر عليهم ، فمعاداتهم والإنكار عليهم هو من تمام ولايته ومما تترتب صحتها عليه.[6]

---

[1] «فتح الباري» ، كتاب الرقاق ، باب التواضع ، شرح حديث رقم (٦٥٠٢).

[2] «قطر الولي على حديث الولي» ، ص ٢١ ، الناشر دار الكتب العلمية.

[3] رواه البخاري (٥٩٩٠) ومسلم (٢١٥) ، واللفظ لمسلم.

[4] رواه ابن حبان (٦٤٧) ، وأحمد (٢٣٥/٥) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

[5] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ٥٣ – ٦٢ ، باختصار.

[6] «قطر الولي على حديث الولي» ، ص ٦٧ .

تفاوت أولياء الله في الولاية

قال الشوكاني رحمه الله:

وأولياء الله سبحانه يتفاوتون في الولاية بقوة ما رزقهم الله سبحانه من الإيمان ، فمن كان أقوى إيماناً كان في باب الولاية أعظم شأناً ، وأكبر قدراً ، وأعظم قرباً إلى الله ، وكرامة لديه.

ومن لازِم الإيمان القوي العمل السوي ، والتحبب إلى الله بمحبته عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

وكلما ازداد بعد التقرب إلى الله بفرائضه واجتناب مناهيه بفعل النوافل والاستكثار من ذكره عز وجل ، زاده الله محبة وفتح له أبواب الخير كله دِقَّه وجِله.[1]

والولاية لا تحصل بالدعاوى ، (فقد ادعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه ، فرد الله عليهم دعواهم بقوله ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾.

بل قد ادعى ذلك مشركو العرب كما أخبر الله سبحانه عنهم في قوله ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ، إلى قوله ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

فالكفار في الحقيقة أولياء الشيطان ، كما قال عز وجل ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

وقال ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

وقال ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾.[2]

أفضل الأولياء

قال ابن تيمية رحمه الله:

وأفضل أولياء الله الأنبياء ، وأفضل الأنبياء المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

---

[1] «قطر الولي على حديث الولي» ، ص ٤٨ .

[2] «قطر الولي على حديث الولي» ، ص ٢٣ – ٢٥ ، باختصار وتصرف يسير.

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ ، خاتم النبيين وإمام المتقين ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وَفدوا ، صاحب المقام المحمود ، الذي يغبِطه به الأولون والآخرون ، وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة ، وصاحب الوسيلة والفضيلة ، بعثه الله بأفضل الكتب ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرَّقهُ فيمن قبلهم.[1]

ثم يأتي بعد الأنبياء أتباع الرسل ، فأفضل أتباع الرسول محمد ﷺ هم الصحابة رضوان الله عليهم ، ثم التابعون ، ثم تابعوهم ، أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، ثم من تبعهم بإحسان ، الأمثل فالأمثل ، جعلنا الله منهم.

أولى الناس بوصف الولاية

وأولى الناس بوصف الولاية هم العلماء العاملون بما علموا ، المستقيمون على السنة ، الداعون لها ، الذابون عنها ، المتبعون لما جاء عن النبي ﷺ وصحابته والتابعين من بعدهم ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ، كما قال النبي ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر.[2]

قال الإمام النووي رحمه الله: وعن الإمامين الجليلين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما قالا: إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي.[3]

وقد أثنى الله على العلماء العاملين بما عملوا فقال ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وكذلك طلبة العلم والعباد المتبعون لهدي النبي ﷺ في العقيدة والشريعة والسلوك ، فكل هؤلاء حقيق بأن يكونوا من أهل الصلاح والولاية إن توافر فيهم شرطا الولاية اللذان تقدم ذكرهما.

---

[1] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ٥٥ – ٥٦ ، وهكذا قال الشوكاني في «قطر الولي على حديث الولي» ، ص ٢٢ – ٢٣ .

[2] رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[3] «التبيان في آداب حملة القرآن» ، الباب الثالث في إكرام أهل القرآن والنهي عن إيذائهم.

الأولياء ليس لهم ميزة

(وأولياء الله ليس لهم ميزة على غيرهم من الأمور المباحات ، لا بلباس ولا بحلق شعر أو تقصيره ولا غير ذلك ، بل يوجدون في الزُّراع والصُّناع والتجَّار ، ويوجدون في أهل السيف والجهاد والقرآن ، ونحو ذلك).[1]

الأولياء ليسوا بمعصومين

(وأولياء الله ليسوا معصومين ، ومن أعتُقِد فيه ولاية الله فلا يُقبل عنه كل ما صدر منه ، بل يجب عرضه على الكتاب والسنة ، فما وافقهما أُخذ ، وما خالفهما تُرك ، لأن الواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ﷺ).[2]

قال ابن تيمية رحمه الله:

"وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلِط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يَحسب بعض الأمور مما أمر الله به وتكون مما نهى الله عنه ، ويجوز أن يَظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان ، لبَّسها عليه لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى ، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان ، فقال تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

وثبت في الصحيح أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: قد فعلت."[3]

---

[1] قاله د. عبد الرحمٰن اليحيى حفظه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ١٣ .

[2] قاله د. عبد الرحمٰن اليحيى حفظه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب «الفرقان» ، ص ١٣ ، بتصرف يسير.

[3] «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، ص ١٤٤ .

الوِلاية والصلاح أمر قلبي غيبي لا يعلمه إلا الله

الولاية والصلاح أمر قلبي غيبي لا يطلع عليه إلا الله ، لأن سببهما التقوى ، والتقوى لا يطلع عليها إلا الله ، فعلى هذا فلا يجوز أن يجزم بها لأحد ممن لم ينص عليه الشرع ، لأن هذا لا يقدر عليه أحد ، ولأن الذين ورد الشرع بصلاحهم ، أو النص على أنهم شهداء قد مضوا ، من الصحابة والأنبياء ، ولكن يجوز أن يقال فيمن ظهر الصلاح على أفعاله أن يقال: نحسبه صالحا ، أو على خير وهدى واستقامة ، والله حسيبه ، كما قال النبي ﷺ : من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحدا ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يُعلم ذلك منه.[1]

قال تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمٰن ودا﴾[2] ، قال قتادة: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه ، وزاده من عنده.[3]

وعن أنس بن مالك قال: مُرَّ بجنازة ، فأُثني عليها خيرا ، فقال نبي الله ﷺ : وجبت ، وجبت ، وجبت.

ومُرّ بجنازة ، فأُثني عليها شرا ، فقال نبي الله ﷺ : وجبت ، وجبت ، وجبت.

قال عمر: فدى لك أبي وأمي ، مُر بجنازة فأُثني عليها خيرا ، فقلت: (وجبت ، وجبت ، وجبت) ، ومُرّ بجنازة فأثني عليها شرا ، فقلت: (وجبت ، وجبت ، وجبت).

فقال رسول الله ﷺ : من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض.[4]

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: إذا أحب الله العبد نادى جبريل: (إن الله يحب فلانا فأحببه) ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء: (إن الله يحب فلانا فأحبوه) ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض.[5]

---

[1] رواه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم (٣٠٠٠) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

[2] سورة مريم: ٩٦ .

[3] انظر تفسير الآية في «تفسير الطبري».

[4] رواه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩) عن أنس رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم.

[5] رواه البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري.

فالحاصل أن الصلاح أمر قلبي ، وهو يظهر على الجوارح ، لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله ، فالصلاح له علامات ، كالحرص على الطاعات ، والكف عن المحرمات ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومع هذا فلا يجوز الجزم بصلاحه ، فهذا من خصائص الله وحده ، فهو الذي يعلم السرائر ، فيجب التأدب معه تعالى.

مفاهيم خاطئة عن الوِلاية

قال ابن تيمية رحمه الله:

وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله ؛ أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور ، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة ، مثل أن يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها ، أو يمشي على الماء أحياناً ، أو يملأ إبريقاً من الهواء ، أو يختفي أحياناً عن أعين الناس ، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سُرِق لهم ، أو بحال غائب لهم أو مريض ، أو نحو ذلك من الأمور ، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله ، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يُغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ ، وموافقته لأمره ونهيه ، وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور ، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله ، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين ، وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يُظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله ، بل يُعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دلّ عليها الكتاب والسنة ، ويُعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، وشرائع الإسلام الظاهرة.

مثال لذلك: أن الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة ، بل قد يكون ملابساً للنجاسات ، معاشراً للكِلاب ، يأوي إلى الحمامات والقمَّامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لا يتطهر الطهارة الشرعية ولا يتنظف. انتهى.[1]

وقال أيضا:

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن **خرج عن الكتاب والسنة.**[2]

---

[1] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ١٦٨ – ١٦٩ ، باختصار.

[2] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ٣٣١ .

وقال أيضا: فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان ، فإن هذه حال أوليائه ، قال تعالى ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

وأما أصحاب الأحوال الشيطانية فهم من جنس الكهان ، يكذبون تارة ويصدُقون أخرى ، ولا بد في أعمالهم من مخالفة للأمر ، قال تعالى ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ الآيتين.

ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسا الخبائث من النجاسات والأقذار التي تحبها الشياطين ، ومرتكبا للفواحش ، أو ظالما للناس في أنفسهم وأموالهم وغير ذلك ، والله تعالى قد حرم ﴿الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله﴾ الآية ، وأولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور.[1]

قال أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يُرفع في الهواء ؛ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وآداب الشريعة.[2]

حقيقة معاداة أولياء الله

إذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه ؛ كان المعادي لوليه معادياً لله في الحقيقة كما قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ ، فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، ولهذا قال: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة.

والمعادي لولي الله هو في الحقيقة معادياً لله ، ودليله قول النبي ﷺ : إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته **بالحرب**.[3]

فعلى هذا ؛ فمن عادى أولياء الله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فقد حاربه.

---

[1] «مجموع الفتاوى» (١/٨٤-٨٥) ، باختصار.

[2] رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٤١).

ومما نقله أبو نعيم عنه قوله: الذي يمشي على الماء ليس بعجب ، لله خلق كثير يمشون على الماء ليس لهم عند الله قيمة. (١٠/٤٠).

[3] رواه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ذِكر طرف من قصص الخرافة والخرافيين في مسألة الكرامة والوِلاية

وممن ادعوا الولاية والكرامة وعلم الغيب ، أو اعتقدوا ذلك في آخرين ، من ذَكَرهم عبد الوهاب بن أحمد الأنصاري[1] ، المعروف بالشعراني – وكان خرافياً كبيراً – فقد ذكر في كتابه «الطبقات الكبرى» أخبارا تتعلق ببعض الخرافيين الذين فُتِن بهم الجهال ، كأحمد بن علي البدوي[2] ، ومن تلك الخرافات أن البدوي كان يزعم أن من كراماته أن رضيعا بمصر كاد يفتك به ثور ، فمد البدوي إليه يده وكان بالعراق ، فأبعد الثور عنه.

كما ذكر في كتابه إسماعيل بن يوسف الأنباني ، وزعم أنه كان يرى اللوح المحفوظ!

ومما ذكره الشعراني في كتابه أن أحد الصوفية استضافه عنده ، فدعا جميع الأولياء – الأحياء والأموات – ليحضروا وليمته!

وذكر أيضا في كتابه إبراهيم الدسوقي المصري ، وكان يدَّعي أنه رأى الله سبحانه وتعالى ، وأنه خاطبه ، وأنه أَغلق أبواب النار ، وفَتح أبواب جنة الفردوس ، وأن من زاره أسكنه جنة الفردوس ، وأنه نظر في اللوح المحفوظ وهو ابن ثمان سنين.

وذكر أمورا أخرى تضحك لسماجتها البهائم.

وللدسوقي والبدوي قبور تعظمها الناس وتتوجه إليها ، نسأل الله العافية.

تعريف الكرامة

الكرامة عند علماء الشريعة أمر خارق للعادة ، يُظهره الله عز وجل على أيدي أوليائه ، يُقصد بها الإكرام ، أو تلبية حاجة ذلك الولي ، أو التأييد له ، أو الإعانة ، أو نُصرة الدين.[3]

---

[1] ترجم له خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» ، توفي سنة ٩٧٣ ، من كبار الصوفية وعلمائها.

[2] ترجم له خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» ، توفي سنة ٦٧٥ ، من كبار الصوفية ، اتخذ الجهال قبره في «طنطا» مزارا يفِدون إليه من أنحاء مصر!

[3] انظر «قطر الولي على حديث الولي» ، ص ١١ ، و «شرح الواسطية» (٢٩٨/٢).

الإيمان بالكرامات من عقيدة المسلمين

قال الشيخ صنع الله بن صنع الله الحلبي الحنفي[1] رحمه الله في تعريف الأولياء والكرامات وذكر بعض ضوابطها:

الأولياء هم المتقون من المؤمنين ، العارفون بالله وبصفاته ، المقبلون على الطاعات ، المعرضون عن المعاصي والزلات ، فهؤلاء **قد يقع لهم كرامات** يكرمهم الله بها ، تأييداً لتقواهم ، لحكمة منها: حجة للدين ، أو لحاجة المسلمين.

وما حصل لهم هذا الإكرام إلا ببركة اتباع خير الأنام عليه من الله أفضل الصلاة والسلام.

وهي أمرٌ خارق للعادة كالمعجزة ، غير أنها لا تقترن بدعوى النبوة ، ولا بتحدٍ ، ولا فيها قصد ، بحيث كلما أراد جرت ، لأنها من الآيات ، وهي على وِفق إرادته تعالى ، قال جل ذكره ﴿إنما الآيات عند الله﴾.

وليس لمخلوق فيها تصرفٌ بما أراد ومتى أراد.[2]

الكرامات ليست دليلاً على كمال الولاية لله وإنما تحصل بحسب الحاجة

الكرامات ليست دليلاً على كمال الولاية لله ، بل تكون بحسب الحاجة إليها ، فيحتاجها ضعيف الإيمان ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عنها ، ولهذا كانت في التابعين أكثر منها في الصحابة.[3]

قال ابن تيمية رحمه الله:

ومما ينبغي أن يُعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج ؛ أتاه منها ما يُقوي إيمانه ويَسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته ، ولهذا كانت هذه

---

[1] صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي ، واعظ فقيه ، محدث أديب ، له أرجوزة في الحديث ، وله كتاب مشهور في إبطال الغلو في الصالحين «سيف الله على من كذب على أولياء الله». توفي سنة ١١٢٠ . انظر ترجمته في «هدية العارفين» (٤٢٨/١) و«معجم المؤلفين» (٤٨٣/١).

[2] «سيف الله على من كذب على أولياء الله» ، ص ١٠٢ ، وانظر ما قاله ابن القيم رحمه الله في هذا الباب في قصة الطفيل بن عمرو الدوسي في «زاد المعاد» (٦٢٧/٣).

[3] انظر «شرح العقيدة الواسطية» (٣٠٢/٢ – ٣٠٣) لابن عثيمين رحمه الله.

الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة ، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهديٍ الخلق ولحاجتهم ، فهؤلاء أعظم درجة.[1]

كرامات الأولياء تعتبر من جملة آيات الأنبياء

الكرامات من جملة آيات الأنبياء ، لأنها لا تحصُل إلا لمن اتبعهم ، ولأنه لولا الأنبياء لما كان الأولياء أولياء ، لأنهم ما صاروا أولياء إلا باتباعهم للنبي ﷺ .

ولكن كرامات الأولياء تعتبر من الآيات الصغرى ، أما الآيات الكبرى فخاصة بالأنبياء ، لا يُشاركهم فيها أحد غيرهم ، لا الأولياء ولا غيرهم ، وهي كخلق الطين من الطير ، ونزول الكتب ، وفلق البحر ونحو ذلك.

وعلة عدم المشاركة أن الله فضَّل الأنبياء على غيرهم ، فلا بد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله ، إذ لو أتى بمثل ما أتى به الفاضل لكان مثله ، لا دونه.[2]

كرامات الأولياء لا يُقصد بها التحدي ، بخلاف آيات الأنبياء

كرامات الأولياء لا يُقصد بها التحدي إطلاقا ، وإنما يُقصد بها الإكرام وتلبية حاجة ذلك الولي ، بخلاف آيات الأنبياء فقد يُقصد بها التحدي وقد يقصد بها تلبية حاجات الناس ، وعلى كل حال ففيها تنويه بكرامة ذلك النبي.[3]

الكرامات قد تكون للابتلاء

الكرامات من جنس الابتلاء الذي ذكره الله في قوله ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾.

ولهذا الكرامة لا يُتبجح بها ، بل إن كثيراً من الصالحين يكره ذلك ، وإذا ما حصلت يسأل الله زوالها ، خوفاً على نفسه من الفتنة أو نقص درجته.[4]

---

[1] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

[2] انظر كتاب «النبوات» (٥٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٢٣ ، ٨٦٦).

[3] انظر كتاب «النبوات» (١٠٨٤ – ١٠٨٥).

[4] قاله د. عبد الرحمٰن اليحيى حفظه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ١٥ .

حصول الكرامة لأحد لا يُسَوِّغ الغلو فيه

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن[1] رحمه الله:

ولو كان المخلوق قد ثبت له من الكرامة ما ثبت ؛ فالكرامة من فِعل الله لا من فعل غيره ، والمستغاث هو الله لا غيره ، ولم يكن الصحابة يستغيثون ويسألون من ظهرت له كرامة ، أو حصلت له خارقة من الخوارق.[2]

فإثبات الكرامات لمن جعل الله على يديه كرامات لا يلزم منه إثبات أن لهم تصرفا في الكون ، أو جواز دعائهم وطلب الشفاعة منهم ، "ومما يبين ذلك أنه وقع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في غزوة خيبر من الكرامات ما لم يقع مثله لغيره ، ومع هذا فلما بلغه عن أناس لما كان منزله بالكوفة أنهم اعتقدوا فيه الإلهية ؛ خدَّ لهم الأخاديد ، وجعل فيها الحطب ، وأوقدها بالنار ، وقذفهم فيها إعظاماً لهذا الأمر ، وهو بالنسبة إلى ما وقع من عباد القبور في هذه الأزمنة وقبلها قليل من كثير ، والكرامة أمر يجعله الله لا صنع للبشر فيه ، والذي أوجد الكرامة لمن شاء من عباده هو الذي

---

[1] هو الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى ، ولد سنة ١٢٢٥ في بلدة العلم والعلماء ؛ الدرعية ، درس على يد عدد من المشايخ ، منهم والده الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن ، وكذا ابن عمه الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ محمد بن محمود الجزائري ، وغيرهم.

وبعد تضلعه في العلم تتلمذ عليه عدد من التلاميذ ، أشهرهم الشيخ الأديب الذاب عن دين الله بشعره ونظمه ؛ سليمان بن سحمان رحمه الله تعالى.

له العديد من الكتب والرسائل ، أما الكتب فأشهرها «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام» ، وأيضا «منهاج التأسيس في كشف شبهات داود بن جرجيس».

أما الرسائل فجمعها تلميذه الشيخ سليمان في المجلد الثالث من «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» ، وبعضها مفرق في بعض المجلدات الأخرى ، وبعضها يقع في «الدرر السنية من الأجوبة النجدية».

توفي رحمه الله سنة ١٢٩٣ .

باختصار وتصرف من ترجمته في مقدمة كتابه «مصباح الظلام» لمحققه د. عبد العزيز بن عبد الله الزير حفظه الله.

[2] «منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس» ، ص ٣٤٤ .

يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له ، فإن الكرامة إنما تقع للموحدين المخلصين بسبب توحيدهم وإخلاصهم".[1]

الناس في الكرامات ثلاثة أصناف

الناس في الكرامات ثلاثة أصناف ، طرفان ووسط ، فمنهم من يُـكذِّب بحصول الكرامات لغير الأنبياء ، وهذه زلة كبيرة كما قال الذهبي[2] رحمه الله[3] ، ومنهم من يَظن أن كل من حصل له كرامة كان ولياً ، فيظن ذلك في السحرة والكهان ممن يستعينون بالجن والشياطين فتحصل لهم خوارق فيدَّعون أنهم أولياء وأنه حصلت لهم كرامات ، فيظنها الجهال كذلك ، والصواب أن الاعتبار في الولاية بالإيمان والتقوى ومتابعة الرسول ﷺ .

ومنهم من يعتقد أن الكرامات قد تحصل لبعض الأولياء كرامة من الله تعالى سدا لحاجته.

الفرق بين الكرامات الإلهية والأحوال الشيطانية

ينبغي التفريق بين **الكرامات الإلهية والأحوال الشيطانية** ، فإن الكهان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات مما يسترقه من السمع ، ثم يدَّعون بأن هذا من الكرامات وأنهم من أولياء الله!

(والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة ، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه ، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كُفره فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب ، كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ، ويعينه على بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة ، وكانت الشياطين تُخرج رجليه من القيد وتمنع السلاح أن ينفُذ فيه ، وتُسبح الرُّخامة إذا

---

[1] بتصرف من «تأييد الملك المنان في نقض ضلالات دحلان» ، ص ١٠٨ ، للشيخ صالح بن محمد الشثري ، المتوفى سنة ١٣٠٩ ، تحقيق: د. محمد بن ناصر الشثري ، الناشر: دار الحبيب – الرياض.

[2] هو العلامة المؤرخ ، شيخ الجرح والتعديل ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد الذهبي ، تركماني الأصل ، شافعي المذهب ، له مؤلفات لا يستغني عنها من جاء بعده ، كـ «سير أعلام النبلاء» ، و«تاريخ الإسلام» ، و «تذكرة الحفاظ» ، و «العلو للعلي الغفار» ، له رواية للحديث النبوي ، وهو من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله ، توفي سنة ٧٤٨ ، انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (١٥٣/٣).

[3] انظر «سير أعلام النبلاء» (٣٥٥/١٧).

نقرها بيده ، وكان يرى الناس بجبل قاسيون[1] رجالاً ركباناً[2] على خيل في الهواء ، ويقول: هي الملائكة ، وإنما كانوا جنّاً ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك: إنك لم تُسَمِّ الله ، فسمَّى الله وطعنه فقتله.[3] انتهى.

والدجال يكون على يديه خوارق كثيرة ، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب[4] ، وأن يقتل ذلك الشاب ثم يحييه ، إلى غير ذلك من الأمور المهولة.

قال أبو عبد الله الذهبي رحمه الله:

فلا يَغتر المسلم بكشف ولا بحال ، ولا بإخبار عن مُغيَّب ، فابن صائد وإخوانه من الكهنة لهم خوارق ، والرهبان فيهم من قد تمزق جوعا وخلوة ومراقبة على غير أساس ولا توحيد ، فصفت كُدورات أنفسهم ، وكاشفوا[5] وفَشروا[6] ، ولا قدوة إلا في أهل الصفوة وأرباب الولاية المنوطة بالعلم والسنن ، فنسأل الله إيمان المتقين ، وتألُّه المخلصين ، فكثير من المشايخ نتوقف في أمرهم حتى يتبرهن لنا أمرهم ، وبالله الاستعانة.[7] انتهى.

قلت: وقصة ابن صائد (ويقال: ابن صياد) معروفة ، رواها عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما قال:

قال النبيُّ ﷺ لابن صَيادٍ: إني قد خَبَأْتُ لك خَبيئاً.

فقال ابن صياد: هو الدُّخ.

قال: اِخْسَأ ، فلن تَعْدُوَ قدرَكَ.[8]

يعني: لست أنت إلا من إخوان الكهان.

وقوله (الدُّخ) يريد الدُّخْن ، وهو نوع من الحبوب.

---

[1] قاسيون: جبل معروف في دمشق.

[2] كذا في المطبوع ، ولعل الصواب: وركبانا.

[3] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ٣٢٤– ٣٢٥ .

[4] يعاسيب جمع يعسوب ، وهي ملكة النحل. انظر «النهاية».

[5] أي ادعوا أنهم كُشِف لهم اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء.

[6] الـفَـشر كلمة عامية ، تعني الكذب.

[7] «سير أعلام النبلاء» (١٧٩/٢٢).

[8] رواه البخاري (١٣٥٤) ومسلم (٢٩٢٤).

فالذي فعله النبي ﷺ مع ابن صياد أنه خَبَأَ له (دُخنا)[1] في كفه ، ثم سأله: ماذا خَبَأت لك؟ فأخبر القرين الجني أو الشيطان ابن صياد بما خبأه النبي ﷺ في كفه ، وكان قد رآه قبل أن يقبض النبي ﷺ يده ، ولكن ابن صياد لم يسمع من الجني كلمة (الدُّخن) كاملة ، فسمعها إلا الحرف الأخير (النون) ، فسمعها على هذا النحو (الدُّخ) ، فأدَّاها كما سمعها ، فقال له النبي ﷺ : اِخسأ ، فلن تعدو قدرك.[2]

قال القرطبي[3] رحمه الله: كان ابن صياد على طريقة الكهنة ، يخبر بالخبر فيَصِحُّ تارة ويَفسُدُ أخرى ، فشاع ذلك ولم ينزل في شأنه وحي ، فأراد النبي ﷺ سلوكَ طريقةٍ يختبر حاله بها.[4]

فالكهان يَفزَعون إلى الجن في أمورهم ، ويستفتونهم في الحوادث ، فيُلقون إليهم الكلمات ، وقد يتوافق ما يُخبِر به الكاهن مع القدر ، فيظن من سمعه أن الكاهن قد كُشِف له شيء من الغيب ، فيفتتن به ، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة ، وأن ذلك الكاهن وليٌّ من أولياء الله ، وهو من أولياء الشيطان ، كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِين * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون﴾[5].

وقد حسم الإسلام – ذلك الدين العظيم – مادة هذا المدخل الشيطاني ، فحرَّم الذهاب للكهان ، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

وجوب الحذر من الأحوال الشيطانية ، وبيان أن الكرامات لا تكون بالحيل الطبيعية ولا في أماكن البدع

ما كان من هذه الخوارق في أماكن البدع فهو أقرب إلى الأحوال الشيطانية ، كالذي يحصل عند المشاهد ونحوها.[6]

---

[1] الدُّخن نوع من الحبوب.

[2] تقدم تخريجه ، وانظر تقرير ابن تيمية رحمه الله لهذه المسألة في «مجموع الفتاوى» (٦٢/١٩).

[3] هو الإمام أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري ، الأندلسي القرطبي ، الفقيه المفسر ، سارت بتفسيره «الجامع لعلوم القرآن» الركبان ، توفي سنة ٦٧١ . انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٢٢٩/١٥).

[4] نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري» ، شرح حديث (٣٠٥٥).

[5] سورة الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣ .

[6] قاله د. عبد الرحمٰن اليحيى حفظه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ١٦ .

ومن هذه الأحوال الشيطانية ما يكون بواسطة حِيل طبيعية ، كمن يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارِج ودهن الضفادع ونحوها.[1]

قال ابن تيمية رحمه الله في «الاقتضاء»: ثم من غرور هؤلاء وأشباههم اعتقادهم أن استجابة مثل هذا الدعاء[2] كرامة من الله تعالى لعبده ، وليس في الحقيقة كرامة ، وإنما تشبه الكرامة من جهة أنها دعوة نافذة ، وسلطان قاهر ، وإنما الكرامة في الحقيقة ما نفعت في الآخرة ، أو نفعت في الدنيا ولم تضر في الآخرة ، وإنما هذا بمنزلة ما ينَعم به الكفار والفساق من الرياسات والأموال في الدنيا ، فإنها إنما تصير نعمة حقيقية إذا لم تضر صاحبها في الآخرة.[3]

كيف يُـميَّـز المسلم بين الخوارق الشيطانية والكرامات الرحمانية

قال ابن تيمية رحمه الله:

ولكن أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكر عندهم ما يطردها ، مثل آية الكرسي ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكَله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر ، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه ، فيقول له النبي ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة؟ ، فيقول: زعم أنه لا يعود ، فيقول: كذبك وإنه سيعود.

فلما كان في المرة الثالثة قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك ، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى آخرها ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أخبر النبي ﷺ قال: "صدقك وهو كذوب" ، وأخبره أنه شيطان.

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصِدق أبطلتها.[4] انتهى.

كرامات الله لأولياء الله كثيرة ، والصحابة وأهل القرون الثلاثة المفضلة الأولى أولى من غيرهم بها ، وقد ورد في صحيح السنة شيء منها ، فمن ذلك ما حصل عباد بن بشر وأُسيد بن حُضير لما

---

[1] قاله د. عبد الرحمٰن اليحيى حفظه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ١٦ .

[2] أي دعاء أصحاب القبور!

[3] «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٧٠٥).

[4] «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ، ص ٢٣٤ .

خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة مظلمة ، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما.[١]

وأبو بكر الصديق لما ذهب بأضياف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثلاثة جعل لا يأكل لقمة إلا ربا مثلها ، فلما شبعوا كانت أكثر مما هي قبل ، فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاء أقوام كثيرون فأكلوا منها.[٢]

ونزلت السكينة وفيها الملائكة مثل الظُلة لقراءة أُسيد بن حضير.[٣]

وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين.[٤]

وخُبيب بن عدي كان أسيراً للمشركين يؤتى بعنب يأكله ، وليس بمكة عنب.[٥]

وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعترضه الأسد ، فقال: إني مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فمشى الأسد معه حتى أوصله إلى مقصده.[٦]

والبراء بن مالك رضي الله عنه كان إذا أقسم على الله أبر قسَمه ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: كم من أشعث أغبر ذي طِمرَين[٧] لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك.[٨]

---

[١] «صحيح البخاري» ، رقم ٣٨٠٥ .

[٢] «صحيح البخاري» ، برقم (٦٠٢) ، و «مسلم» برقم (٢٠٥٧).

[٣] رواه البخاري (٥٠١٨) ، ومسلم (٧٩٦) ، من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه.

[٤] روى مسلم (١٢٢٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: وقد كان يُسَلَّمُ عليَّ حتى اكتويتُ فتُرِكتُ ، ثم تركتُ الكيَّ فعاد.

أي كانت الملائكة تسلم علي حتى استعملت الكي لأتداوى به من البواسير ، فتوقفت الملائكة عن السلام علي ، ثم لما تركت الكي عادت تسلم علي.

وانظر ما قاله الذهبي في «الكاشف» في ترجمته ، وابن تيمية في «المجموع» (٢٧٦/١١).

[٥] رواه البخاري (٤٠٨٦) ، والطيالسي (٢٧٢٠) ، ومن طريقه البيهقي (١٤٥/٩-١٤٦).

[٦] رواه الطبراني في «الكبير» (٦٤٣٢) ، والحاكم في «المستدرك» (٦٠٦/٣) ، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٥٤٤) ، وصحح إسناده الحاكم.

[٧] الطِّمر هو الثوب الخَلِق. انظر «النهاية في غريب الحديث».

[٨] رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وصححه الألباني.

وكان مرة في جيش له ، فلقيهم العدو ، فأقسم على الله بالظفر والشهادة ، فوقع شهيداً ، وانهزم العدو.[1]

وروى ابن عساكر بإسناده عن أبي السفر أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما نزل الحيرة نزل على أم بني المرازبة فقالوا: احذر السم لا يَسقيكَهُ الأعاجم ، فقال: ائتوني به ، فأُتي به فأخذه بيده ثم اقتحم الحصن.

وفي رواية: قال ابن المقرئ: اقتَحَمَ وقال: بسم الله ، فلم يضره شيئا.[2]

وروى باسناده عن خيثمة قال: أتي خالد بن الوليد برجل معه زِقٌّ[3] خمر ، فقال: اللهم اجعله عسلا عسلا ، فصار عسلا.

وروى بإسناده عن رجل يقال له صعصعة قال: فَشَتِ الخمر في عسكر خالد بن الوليد ، فجعل يطوف عليهم ، وكان رجل منا بعث به أصحابه فاشترى زقا من خمر وجعله بين يديه ، فاستقبله كفة بكفة فقال: ما هذا؟

قال: خل.

قال: جعله الله خلا.

فانطلق إلى أصحابه ففتحه فإذا خل كأجود ما يكون من الخل.

وفي رواية عن محارب بن دثار أن الآتي بالخمر قال: هذه والله دعوة خالد بن الوليد.[4]

وسعد بن أبي وقاص كان مجاب الدعوة ، فعن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اللهم استجب لسعد إذا دعاك.[5]

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن جعفر بن زيد أن صلة بن أشيم جاءه الأسد مرةً وهو يُصلي في غَيضة[6] ، فلما سلَّم قال: اطلب الرزق من مكان آخر ، فولَّى الأسد وإن له زئيرا تصدعت منه

---

[1] رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/٢٩١-٢٩٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[2] «تاريخ دمشق» ، ذكر من اسمه خالد ، ورواه الطبراني في «الكبير» (٣٨٠٨) عن أبي بردة ، و (٣٨٠٩) عن قيس بن أبي حازم.

[3] الزِّقُّ هو الوعاء الذي ينقل فيه الخمر. انظر «لسان العرب».

[4] «تاريخ دمشق» ، ذكر من اسمه خالد.

[5] «سنن الترمذي» (٣٧٥١) ، وصححه الألباني.

[6] الغَيضة هي الشجر الملتف. انظر «النهاية في غريب الحديث».

الجبال.[1]

ولما عُذِّبت أحدى الصحابيات ذهب بصرها ، فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت: كلا والله ، فرد الله عليها بصرها.[2]

وقد ورد في كرامات سادات التابعين أخبار كثيرة.[3]

وانظر لزاما كلاما جامعا نفيسا لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين[4] رحمه الله في مفهوم كرامات الأولياء في شرحه على «العقيدة الواسطية».[5]

مجاوزة الحد الشرعي في تعظيم الصالحين (الغلو فيهم)

مقدمة

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا كما قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ، وأرسل الرسل لذلك قال ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ، ونهى عباده عن أن يشركوا معه في عبادته أحدا غيره فقال ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ ، وبين لنا أن الشرك أعظم الذنوب فقال ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ، ولأجل بيان توحيد العبادة لله عز وجل والتحذير من الشرك بعث الله الأنبياء

---

[1] «الحلية» (٢٢٠٢).

[2] رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢٨٣/٢) ، الناشر: دار الكتب العلمية.

[3] انظر «الصحيح المسند من كرامات الأولياء» ، للشيخ عبد الرقيب الأبي ، الناشر: دار العاصمة – صنعاء.

[4] هو الشيخ الأصولي الفقيه المفسر محمد بن صالح بن عثيمين ، من علماء القرن الخامس عشر الهجري ، برَّز في العقيدة والفقه والتفسير ، نفع الله به الناس في زمانه نفعا عظيما ، وانتشر علمه في الآفاق ، سواء منه ما كان مسجلا على الأشرطة أو ما كان مدونا في الكتب ، له طلبة كثر ، جُمعت فتاواه ورسائله فوقعت إلى حين كتابة هذه الأسطر في ٢٩ مجلدا ، وبعد وفاته استؤجرت قناة فضائية لبث علمه ، فتضاعف انتشار علمه على ما كان في حياته ، وهذا من دلائل إخلاصه ، نحسبه كذلك والله حسيبه ، والله يؤتي فضله من يشاء.

انظر ترجمته في كتاب «ابن عثيمين الإمام الزاهد» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

[5] (٢٩٧/٢ – ٣٠٦).

من لدن نوح إلى محمد – عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم[1] – فمن هُدي إلى عبادة الله وحده لا شريك له فقد هدي إلى الصراط المستقيم الذي بعث الله محمدا ﷺ لبيانه ، ومن حاد عنه وأشرك معه غيره في أي نوع من أنواع العبادة فقد خاب وخسر.

واتِّباع الصراط المستقيم يكون بإخلاص العبادة لله ، واجتناب الشرك به ، والإيمان بالنبي ﷺ بفعل ما أمر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، وتصديقه فيما أخبر ، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع ، لا طريق إلى رضوان الله إلا ذلك ، ومن خالف هذا الطريق المستقيم فقد ضل وهلك ، قال تعالى ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه **ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾.

وأسباب الانحراف عن الصراط المستقيم كثيرة ، ومن أخطرها وأكثرها وقوعا الغلو في الدين ، والغلو في اللغة هو المجاوزة والتعدي في الأشياء[2] ، وفي الشرع هو مجاوزة الحد الشرعي في الأمر والنهي ، والغلو في الدين هو سبب انحراف من قبلنا من أهل الكتاب ، وقد نهاهم الله عن ذلك فلم ينتهوا ، قال تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾.

ولما كانت هذه عاقبة الغلو ، نهى الرسول الكريم ﷺ – وهو الشفيق الرحيم – أمته عن الغلو في الدين ، وبين أنه سبب هلاك الأمم السابقة ، فقال: يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين ، فإنه أهلك من قبلكم الغلو في الدين.[3]

والغلو في الدين له صور كثيرة ، **ولكن أخطرها وأعظمها شيوعا هو تعظيم الصالحين** ، وصورته أن يُجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء ، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارِك هو الكمال المطلق ، والغنى المطلق ، والتصرف المطلق من جميع الوجوه ، وأنه لا يستحق العبادة والتألُّه أحد سواه ، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيبًا من هذه الأشياء ؛ فقد ساواه برب العالمين ، وذلك أعظم الشرك.

---

[1] ولا ينافي ذلك أن أول الأنبياء هو آدم عليه السلام ، فإن نوحا عليه السلام هو أول رسول بعثه الله بعد وقوع الشرك ، أما قبل وقوعه فأول الأنبياء هو آدم عليه السلام.

[2] انظر «النهاية في غريب الحديث».

[3] حديث صحيح ، رواه النسائي (٣٠٥٧) ، وابن ماجه (٣٠٢٩) واللفظ له ، وأحمد (٢١٥/١) ، وابن خزيمة (٢٨٦٧) ، وابن حبان (٣٨٧١) ، وأبو يعلى (٢٤٧٢) ، والحاكم (٤٤٦/١) ، وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٢٨٣).

والغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين هو سبب هلاك اليهود والنصارى ، قال ابن تيمية في معرِض كلام له عن الغلو الواقع عند اليهود والنصارى:

وقد افترق اليهود والنصارى ، فاليهود جفوا عنهم فكذبوهم وقتلوهم كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفرقا تقتلون﴾.

والنصارى غلوا فيهم فأشركوا بهم حتى كفروا بالله ، قال تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ – إلى قوله – ﴿فسيحشرهم إليه جميعا﴾.

فبالإيمان بهم وتصديقهم وطاعتهم يخرج المسلم عن مشابهة اليهود ، وبعبادة الله وحده والاعتراف بأنهم عباد الله لا يجوز اتخاذهم أربابا ولا الشرك بهم والغلو فيهم ؛ يخرج عن مشابهة النصارى ، فإن اتخاذهم أربابا كفر ، قال تعالى ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾.

والنصارى يُشركون بمن دون المسيح من الأحبار والرهبان ، قال تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ ، فمن غلا فيهم واتخذهم أربابا فهو كافر ، ومن كذب شيئا مما جاءوا به أو سبهم أو عابهم أو عاداهم فهو كافر ، فلابد من رعاية هذا الأصل.[1]

وصدق ابن تيمية رحمه الله ، فالنصارى غلوا في تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام حتى ادعوا أنه هو الله ، وقال آخرون: إنه ابن الله ، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا –.

واليهود غلو في ذم عيسى عليه السلام ، فقالوا إنه ابن زانية ، حاشا نبي الله من ذلك ، وقتلوا كثيرا من الأنبياء كما قال الله عنهم في القرآن ﴿وتقتلون النبيين بغير حق﴾.

فالحاصل أن النصارى عظّموا الأنبياء حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم ، واليهود استخفوا بهم حتى قتلوهم ، والأمة الوسط عرفت مقاديرهم ؛ فلم تغلوا فيهم غلو النصارى ، ولم تجفوا عنهم جفاء اليهود.[2]

---

[1] «الرد على الإخنائي» ، ص ٤٧٤ .

[2] قاله الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي رحمه الله في كتابه «شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور»: ص ٥٢ ، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – مكه.

وقد تجاوز أناس الحد الشرعي في تعظيم الصالحين ، سواء في حياتهم أو في مماتهم ، فصرفوا لهم حقوقا إلٰهية ، أو وصفوهم بصفات ربانية ، أو جعلوا لهم خصائص نبوية ، وكل هذا من أبطل الباطل ، فأما الحقوق الإلٰهية فكالدعاء والذبح ونحو ذلك ، وأما الصفات الربانية فكادعاء علم الغيب لهم ، وبعضهم أطلقوا عليهم خصائص لا تنبغي إلا للنبي ﷺ ، كالتبرك بما انفصل منه من وضوء وعرق ونحو ذلك مما خص به النبي ﷺ ، عياذا بالله من ذلك كله.

وهذا التصرف نوع من أنواع الغلو ، إذ الغلو في اللغة هو المجاوزة وتعدي الحد ، وفي الشرع: مجاوزة الحد الشرعي في الأمر والنهي.

وهذا النوع من الغلو هو الذي أدى بكثير من الأمم إلى الوقوع في الشرك ، سواء كان الغلو في أنبياء أو فيمن ليسوا بأنبياء ، بدءا من قوم نوح إلى أمة محمد ﷺ ، وقد كان منشأُ الشرك في عهد نوح عليه الصلاة والسلام من تعظيم الصالحين ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا[1] أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا[2] ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم[3] عُبدت.[4]

وروى ابن جرير بإسناده إلى الثوري عن موسى عن محمد بن قيس أنه قال عن يغوث ويعوق ونسرا: كانوا قومًا صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، **فعبدوهم**.[5]

---

[1] أي ماتوا.

[2] أي اصنعوا أنصابا ، وهي تماثيل تصنع على هيئتهم ثم تنصب في المجالس ليراها الناس فيقتدوا بهم في أفعالهم! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

[3] أي تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية».

قال مقيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

[4] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[5] «تفسير ابن جرير» ، سورة نوح: ٢٤ .

وقال ابن القيم رحمه الله: قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.[١]

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ ، أما وُد فكانت لكلب بدومة الجندل[٢] ، وأما سُواع فكانت لهُذيل ، وأما يغوث فكانت لمُراد ثم لبني غُطيف بالجُرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمْدان ، وأما نسر فكانت لحِمْير ، لآل ذي الكَلاع.[٣]

وقال قتادة: كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، **ثم اتخذها العرب بعد ذلك**.[٤]

وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية ، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور.[٥]

فمنشؤ الشرك وعبادة غير الله مع الله مشاركة أو استقلالا هو الغلو في الصالحين ، عياذا بالله من ذلك كله.

والصالحون صدقا يكرهون الغلو فيهم ويزجرون عنه الناس ، أما الصالحون ادعاءً فيحبون هذا ، لأنهم يريدون الشهرة والرفعة ، وهؤلاء ليسوا صالحين ، بل طالحين.

فصلٌ في النهي عن الغلو

ولما كان الغلو من أعظم أسباب انحراف الأمم من قبلنا ، سواء كان في حق من كانوا أنبياء أو من ليسوا بأنبياء ؛ نهى الله أهل الكتاب عن ذلك ، قال تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾.[٦]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي لا تُجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تُطروا[٧] من أُمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو

---

[١] «إغاثة اللهفان» (٣٣٢/١)

[٢] موضع في شمال جزيرة العرب.

[٣] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[٤] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ ، (٢٥٤/١٢).

[٥] «زاد المعاد» (٤٥٨/٣).

[٦] سورة المائدة: ٧٧ .

[٧] الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.

نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلٰها من دون الله ، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً. انتهى.

وقال في تفسير آية النساء ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾:

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادَّعوا فيهم العصمة ، واتَّبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحًا أو كذبًا ، ولهذا قال الله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾.

ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله.[1] انتهى.

قال د. محمد بن خليفة التميمي حفظه الله:

(**والغلو في الصالحين طريقة النصارى** ، فإن المتأمل للنصوص القرآنية يجد أن النصارى لم يكتفوا بالغلو في المسيح ورفْعِه إلى درجة الألوهية ، بل غلوا أيضاً في حق أحبارهم ورهبانهم فأعطوهم حق التشريع والطاعة المطلقة والاتباع حتى فيما يخالف شرع الله وأحكامه.

فكان الأحبار والرهبان يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله ويقررون شرائع وأحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان ، فتلقى النصارى ذلك كله بالقبول والطاعة ، قال تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ ، فهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، ولهذا قال تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً﴾ ، أي الذي إذا حرم شيئاً فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرَعه اتُّبع ، وما حكَم به نَفَذ ، ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ ، أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأنداد والأولاد ، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ولم يقتصر غلو النصارى عند هذا الحد ، بل قدسوهم أمواتاً كما قدسوهم أحياءً ، فأقاموا على قبورهم الأضرحة ، وقدموا لهم القرابين ، فكان ذلك سبباً في لعنهم ، قال ﷺ : لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

---

[1] رواه البخاري (٣٤٤٥).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: والنصارى أشد غلوا في ذلك من اليهود ، كما في الصحيحين عن عائشة ، أن النبي ﷺ ذكرت له أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما كنيسة بأرض الحبشة ، وذكَرَتا من حسنها وتصاوير فيها ، فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة.[1]

والنصارى كثيراً ما يعظمون آثار القديسين منهم ، فلا يستبعد أنهم ألقوا إلى بعض جهال المسلمين أن هذا قبر بعض من يعظمه المسلمون ليوافقوهم على تعظيمه.[2]

فالذين يعظمون القبور والمشاهد لهم شبه شديد بالنصارى).[3]

والغلو في الأشخاص يهدم أصلي الدين ؛ التوحيد والاتباع ، نرى هذا ظاهرا في النصارى ، فالنصارى هدموا الأصل الأول بجعلهم عيسى في مقام الألوهية ، وهدموا الأصل الثاني بأن جعلوا لرهبانهم حق التشريع والتحليل والتحريم ، فانظر كيف كان الغلو سبباً لهدم الدين.

فالغلو في الصالحين هو الطامة الكبرى والبلية العظمى التي جنحت بالبشرية عن جادة الحق والصواب إلى ظلمات الشرك والضلال ، باتخاذ أنداد لله من خلقه ، واعتقاد أنها تملك شيئًا من خصائص الإلٰهية.

والغلو يدخل في الاعتقادات والعبادات ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله (إياكم والغلو في الدين) ؛ عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال.[4]

ومن الغلو في العبادات ما حدّث به أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، أن ثلاثة رهط[5] أتوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها ، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

---

[1] رواه البخاري (١٣٤١) ، ومسلم (٥٢٨) واللفظ له.

[2] «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤٦٠).

[3] بتصرف من «حقوق النبي ﷺ على أمته» ، ص ٦٤٥ .

[4] باختصار من «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٩٣).

[5] الرهط هم ما دون العشرة من الرجال. انظر «النهاية».

فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني.[1]

وفي رواية مسلم: (لا آكل اللحم) بدلا من (أصوم ولا أفطر).

فسمى النبي غلوهم رغبة عن الشرع الذي جاء به ، وتبرأ ممن هذه حاله ، حتى وإن كان الدافع لذلك هو التقرب إلى الله تعالى ، لأن هذا الغلو فيه هدم للأصل الثاني من أصول هذا الدين ، ألا وهو أصل الاتباع للنبي ﷺ ، فنحن مأمورون بالاقتداء به ﷺ والأخذ بسنته ، فلا غرابة أن يتبرأ النبي ﷺ ممن غلا في جانب ما سنه وشرعه للأمة ، لأنه لو فتح هذا الباب وولجته الأمة لأصبحت عبادة الله مجالاً لأهواء الناس وعقولهم ، فيتلاشى دينها وتنطمس معالمه ، فتستحق بذلك غضب الله ومقته ، فتهلك كما هلكت الأمم السابقة.

ولهذا قال النبي ﷺ : هلك المتنطعون ، قالها ثلاثا.[2]

قال النووي رحمه الله: (هلك المتنطعون) ، أي المتعمقون الغالون ، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

وقال أيضا: المتنطعون ؛ المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد. انتهى.

ولما قال النبي ﷺ لابن عباس في الحج وهو على ناقته: (القط لي حصى) ؛ لقط له سبع حصيات مثل حصى الخذف ، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا ، ثم قال: **أيها الناس ، إياكم والغلو في الدين.**

وهذا ينبهنا إلى أمر هام ، وهو أن الغلو قد يبدأ صغيرا ثم تتسع دائرته فتهلك بذلك أمم.

وقد حصل الغلو في هذا الباب ، فترى بعض الناس يرمي بالحجارة الكبار والأحذية ونحو ذلك ، ظنا منه أنه قد بالغ في الرمي بما هو خير من الحصى الصغار ، والله المستعان.

وكما تقدم ؛ فإن صورة الغلو (أن يُجعل للصالحين شيء من حقوق الله الخاصة به ، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارِك هو الكمال المطلق ، والغنى المطلق ، والتصرف المطلق من جميع الوجوه ، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه ، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له

---

[1] رواه البخاري (٥٠٦٣) ، ورواه مسلم (١٤٠١) بنحوه.

[2] رواه مسلم (٢٦٧٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

نصيبًا من هذه الأشياء ؛ فقد ساوى به رب العالمين ، وذلك أعظم الشرك ، ومن رفع أحدًا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه ، وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين).[1]

أحوال الناس في تعظيم الصالحين

(وينقسم الناس في **معاملة** الصالحين إلى ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء الذين يهضمونهم حقوقهم ، ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.[2]

أهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ، ولكنهم يبرءون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم ، والصالحون أيضا يتبرءون من أن يدَّعوا لأنفسهم حقًا من حقوق ربهم الخاصة ، كما قال تعالى عن عيسى ﷺ ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾).[3]

تحذير النبي ﷺ أمته من الغلو

كان النبي ﷺ يحذر الناس من الغلو عموما ومن الغلو في شخصه خصوصا ، وقد جاء بعض تحذيره وهو في مرض موته ، بل وهو في سياق الموت ، وسنقتصر هنا على ذكر عشرة أحاديث:

١. عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله.[4]

والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.[5]

---

[1] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله في كتابه «القول السديد» ، باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

[2] رفْعُهم فوق منزلتهم ليس محصورا باعتقاد أنهم ليسوا بشرا ، كما تقول النصارى في عيسى ابن مريم ، بل يكون أيضا بنسبة شيء من خصائص الله لهم ، والتي تقدم ذكرها في صورة الغلو.

[3] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله في كتابه «القول السديد» ، باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

[4] رواه البخاري (٣٤٤٥).

[5] انظر «النهاية في غريب الحديث».

٢. وعن قيس بن سعد رضي الله عنه قال: أتيت الحِيرة[١] ، فرأيتهم يسجدون لمرزُبان[٢] لهم فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك ، قال: أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟

قلت: لا.

قال: فلا تفعلوا ، لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله عليهن من الحق.[٣]

٣. ولما قدم معاذ رضي الله عنه من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟

فقال: أتيت الشام ، فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم[٤] وبطارقِتهم[٥] ، فأردتُ أن أفعل ذلك بك.

قال: فلا تفعل ، فإني لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء ؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.[٦]

٤. وعن ابن بريدة عن أبيه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إيذن لي فلأسجد لك.

قال: لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة تسجد لزوجها.[٧]

٥. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت.

---

[١] الحيرة بلد معروف بالعراق آنذاك.

[٢] المرزبان هو الفارس الشجاع وهو مُقدم عندهم.

[٣] رواه أبو داود (٢١٤٠) ، والدارمي في «كتاب الصلاة» (١٤٣٥) ، والحاكم (١٨٧/٢) ، وصححه الألباني.

[٤] الأساقفة جمع أُسقُف – بضم الهمزة – ، وهو رئيس النصارى في الدين. انظر «لسان العرب».

[٥] بطارقة جمع بِطريق ، بكسر الباء ، ويقال بطريك ، وهو لقب يطلق على المقدمين عند النصارى. انظر «لسان العرب» و «المعجم الوسيط».

[٦] رواه ابن ماجه (١٨٥٣) وابن حبان (٤١٧١) ، وحسنه الشيخ الألباني كما في «الإرواء» (٥٥/٧) ، وكذا الشيخ شعيب كما في حاشيته على «صحيح ابن حبان».

[٧] رواه الدارمي في كتاب الصلاة ، باب النهي أن يسجد لأحد ، (١٤٣٦) ، الناشر: دار القلم – دمشق.

قلت: وقد تكرر هذا الفعل عدة مرات أمام النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ ينكره في كل مرة أشد الإنكار ، انظر ما رواه الدارمي عن قيس بن سعد وعن ابن بريدة عن أبيه في كتاب الصلاة ، باب النهي أن يسجد لأحد ، وكذا ما ما رواه الترمذي (١١٥٩) وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني كما في «الإرواء» (٥٤/٧).

فقال له النبي ﷺ : أجعلتني والله عدلاً؟ بل ما شاء الله وحده.[1]

وفي لفظ: جعلت لله نداً؟ ما شاء الله وحده.[2]

٦. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت.[3]

٧. وعن طُفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها ، أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود فقال: من أنتم؟

قالوا: نحن اليهود.

قال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيرا ابن الله.

فقالت اليهود: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ثم مر برهط من النصارى فقال: من أنتم؟

قالوا: نحن النصارى.

فقال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله.

قالوا: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: هل أخبرت بها أحدا؟

قال عفان[4]: قال: نعم ، فلما صلوا خطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: إن طفيلا رأى رؤيا ، ، فأخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها ، قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد.[5]

---

[1] رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨) ، وأحمد (٢١٤/١) ، واللفظ له ، وصححه لغيره محققو «المسند» ، وخرجه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

ولفظ النسائي: أجعلتني لله عدلاً؟

[2] رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣).

[3] رواه ابن ماجه (٢١١٧) ، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ، (١٠٩٣).

[4] وهو الذي روى عنه أحمد ، وهو عفان بن مسلم الصفار.

[5] رواه أحمد (٧٢/٥) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٨) ، والشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لـ «المسند».

٨. وعن خالد بن ذكوان قال: قالت الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ: جاء النبيُّ ﷺ يدخل حين بُنيِ عليَّ[١] ، فجلسَ على فِراشي كمجلِسكَ[٢] منّي ، فجعلتْ جُوَيْرِياتٌ[٣] لنا يَضربنَ بالدُفِّ ويَندُبنَ[٤] مَن قُتلَ من آبائي يومَ بدرٍ ، إذ قالت إحداهنَّ: وفينا نبيٌّ يَعلمُ ما في غَدِ.

فقال: دَعي هذِهِ وقولي بالذي كنتِ تقولين.[٥]

وفي لفظ قال: أَمَّا هٰذَا فَلاَ تَقُولُوهُ ، مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلاَّ اللَّه.[٦]

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ مر بنساء من الأنصار في عرس لهن يُغَنِّين:

وأهدى لها كبشًا تنحنح في المِربد[٧] وزَوجُكُمُ في النادي[٨] ويعلم ما في غدِ

فقال رسول الله ﷺ : لا يعلم ما في غدٍ إلا الله.[٩]

٩. ولم يقف النبي ﷺ عند هذا ، بل قد نهى عن مدحه بما فيه من الخصال سدًّا لباب الغلو فيه ، فكيف بمن مدحه بما ليس فيه ، كمن نسب له شيئا من خصائص الربوبية أو الألوهية؟

فعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا.

فقال: السيد الله تبارك وتعالى.

قلنا: وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طَولا[١٠].

---

[١] أي حين دخل عليها زوجها ليلة عرسها.

[٢] لم يأتِ في الحديث بيان من هو المخاطَب ، والظاهر أنه خالد بن ذكوان ، راوي الحديث عن عائشة ، رضي الله عنها.

[٣] الجويرية تصغير جارية ، والمقصود بنيات صغيرات.

[٤] الندب هو عَدُّ خصال الميت ، وهو وسيلة لتهييج الحزن.

[٥] قال ابن حجر رحمه الله: فيه إشارة إلى جواز سماع المدح والمرثية مما ليس فيه مبالغة تفضي إلى الغلو.

[٦] رواه البخاري (٥١٤٧) ، واللفظ الآخر لابن ماجه (١٨٩٧) وصححه الألباني.

[٧] المربد: هو الموضع الذي تحبس فيه الغنم والإبل. انظر «النهاية».

[٨] النادي: هو مجتمع القوم وأهل المجلس. انظر «النهاية».

[٩] رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٤٠١) ، وحسن إسناده ابن حجر في «الفتح» ، شرح حديث رقم (٥١٤٧).

[١٠] أي أعظمُنا عطاءً وعلُواً على الأعداء ، انظر «عون المعبود».

فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان.[1]

١٠. وعن أنس رضي الله عنه أن أناسا قالوا: يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال: يا أيها الناس ، عليكم بتقواكم[2] ، لا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني.[3]

ففي هٰذين الحديثين وغيرهما نرى كيف سد النبي ﷺ طرق الغلو بأن نهى عن مجرد الزيادة في مدحه وإن كان المدح منصبا على ما فيه من الخصال ، فهو سيد ولد آدم وخير الناس وأفضلهم ، ولكن لما كان ذلك المدح يفضي إلى الغلو فيه وربما عبادته ، نهاهم عنه ، وقال لهم: لا يستجرينكم الشيطان ، أي لا يتدرج بكم ويستزلكم إلى الغلو فيَّ.

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ[4] حفظه الله في كتابه «كفاية المستزيد بشرح كتاب التوحيد»:

فإن في سنة النبي عليه الصلاة والسلام من الدلائل على قاعدة سد الذرائع ما يبلغ مائة دليل أو أكثر ، وأعظم الذرائع التي يجب أن تسد ذرائع الشرك التي توصل إليه ، ومن تلك الذرائع قول القائل: أنت سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا ونحو ذلك.[5]

١١. وعن جابر رضي الله عنهما قال: اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد ، وأبو بكر يُسمِع الناس تكبيره ، فالتفت إلينا فرآنا قياما فأشار إلينا فقعدنا ، فصلينا بصلاته قعودا ، فلما سلم

---

[1] رواه أبو داود (٤٨٠٦) ، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٧٦) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١) ، وأحمد وأحمد (٢٤/٤).

[2] أي عليكم بمراعاة تقوى الله في أقوالكم.

واللفظ الآخر لأحمد – وهو لفظ ابن حبان –: (قولوا بقولكم) ، أي تكلموا بما يحضركم من القول ولا تتكلفوا كأنكم وكلاء الشيطان ورسله ، تنطقون عن لسانه. نقلا من حاشية محققي «المسند» (١٦٧/٢١).

[3] رواه أحمد (١٥٣/٣ ، ٢٤١) ، واللفظ له ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٨) (٢٤٩) ، وابن حبان (٦٢٤٠) ، وصححه محققو «المسند» (٢٣/٢٠) وقالوا: على شرط مسلم.

[4] الشيخ صالح من نسل إمام الدعوة ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ومن العلماء في التوحيد والعقيدة ، تولى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف عام ١٤٢٠ ، له مؤلفات عديدة في العقيدة والتوحيد تدل على قوة تبصره فيهما.

[5] شرح «باب حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك».

قال: إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم ؛ يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ؛ إن صلى قائما فصلوا قياما ، وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا.[1]

قال ابن تيمية رحمه الله: فإذا كان قد نهاهم مع قعوده – وإن كانوا قاموا في الصلاة – حتى لا يتشبهوا بمن يقومون بعظمائهم ، وبيَّن أن من سَرَّه القيام له كان من أهل النار ، فكيف بما فيه[2] من السجود له ، ومن وضع الرأس ، وتقبيل الأيادي؟[3]

فصلٌ في اتبِّاع الصحابة لنبيهم في اجتناب الغلو في الأنبياء والصالحين

١٢. وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هدي نبيهم في **التحرز من الغلو في الأنبياء والصالحين** ، ومن ذلك تعميتهم لقبر «دانيال» وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل وجد الصحابة قبره في «تُستَر»[4] لما فتحوها ، فما كان منهم إلا أن أخفوا قبره حتى لا يفتتن به الناس إذا وجدوه فيغلون في تعظيمه ، وقصته رواها محمد بن إسحاق عن خالد بن دينار قال: حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا «تُستَر» وجدنا في بيت مال الهرمزان[5] سريرا عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب ، فدعا له كعبا فنسخه بالعربية[6] ، فأنا أول رجل من العرب قرأه قراءةً مثل ما أقرأ القرآن هذا ، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟

قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم[7] وما هو كائن بعد.

قلت: فما صنعتم بالرجل؟

قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبُشونه.

قلت: وما يرجون منه؟

---

[1] رواه مسلم (٤١٣).

[2] أي بما في ذلك القيام للمعظمين.

[3] «مجموع الفتاوى» (٩٣/٢٧).

[4] هي مدينة في خوزستان فتحها أبو موسى الأشعري في عهد عمر رضي الله عنه ، والخوز هم أهلها وأهل نواحي الأهواز بين فارس والبصرة وواسط وجبال اللور المجاورة لأصبهان. انظر «معجم البلدان» ، مادة: خوز.

[5] أطلق العرب لقب الهرمزان على الكبير من ملوك العجم. انظر «المعجم الوسيط».

[6] أي ترجمه إليها.

[7] لحن الكلام هو معناه وفحواه.

قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون.

قلت: من كنتم تظنون الرجل؟

قال: رجل يقال له دانيال.

قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟

قال: منذ ثلاثمائة سنة ما تغير منه شيء؟

قال: لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليه الأرض ولا تأكله السباع.[1]

قال ابن كثير رحمه الله: هذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً منذ ثلثمائة سنة فليس بنبي ، بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في «البخاري» ، والفترة التي كانت بينهما كانت أربعمائة سنة وقيل ستمائة سنة ، وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال ، لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونا كما تقدم.

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر.

وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع.

فيحتمل على هذا أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المُدد ، والله أعلم.[2]

فالشاهد من القصة هو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم من تعمية قبر ذاك النبي لئلا يفتتن به الناس إذا علموا أنه قبر نبي فيغلون في تعظيم قبره ، الأمر الذي قد يؤدي إلى عبادته ، فسد الصحابة ذلك الباب بأن عموا قبره تماما.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أُتي بالزنادقة – الذين قالوا أنه هو الله – أحرقهم بالنار ، كما روى ابن حجر رحمه الله في «الجزء الثالث» من حديث أبي طاهر المخلص من طريق عبد الله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن هنا قوما على باب المسجد يدّعون أنك ربهم!

فدعاهم فقال لهم: ويلكم ، ما تقولون؟

قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا!

---

[1] ذكر هذه القصة محمد بن إسحاق في «مغازيه» ، ص ٦٦ – ٦٧ ، تحقيق سهيل زكار.

[2] «البداية والنهاية» ، (٢/٤٠) ، ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام.

فقال: ويلكم ، إنما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون ، وأشرب كما تشربون ، إن أطعت الله أثابني إن شاء ، وإن عصيته خشيت أن يعذبني ، فاتقوا الله وارجِعوا.

فأبوا ، فلما كان الغد غدوا عليه ، فجاء قَنبر[1] فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام.

فقال: أدخلهم.

فقالوا كذلك.[2]

فلما كان الثالث[3] قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قِتلة.

فأبوا إلا ذلك ، فأمر بفَعَلةٍ[4] مَعهم مَرُورهم[5] ، فخد لهم أخدودا بين باب المسجد والقصر ، وقال: (أحفروا) ، فأبعدوا في الأرض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا.

فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها ، حتى إذا احترقوا قال:

إني إذا رأيت أمرا منكرا أوقدت ناري ودعوت قَنبرا

ثم قال الحافظ: وهذا سند حسن.[6]

---

[1] قَنبر هو مولى لعلي رضي الله عنه.

[2] أي كقولهم في اليوم الأول.

[3] أي اليوم الثالث.

[4] الفَعلة صفة غالبة على من يعملون في الطين والحفر ونحو ذلك. انظر «لسان العرب».

[5] المَرُّ هو المسحاة. انظر «لسان العرب».

[6] «فتح الباري» شرح حديث (٦٩٢٢) ، باختصار يسير.

ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (الناشر: دار الفكر - بيروت) (٤٢/٤٧٥-٤٧٦) في ترجمة علي بن أبي طالب ، والأصبهاني في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/٣٤٢-٣٤٣) (الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت) عن عثمان بن أبي عثمان قال: جاء أناس إلى علي بن أبي طالب من الشيعة ، فذكره بنحوه.

فائدة: قال السمعاني في «الأنساب» (٥/٣٩٦) (الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت) في النسبة إلى (النصيري):

وهذه النسبة لطائفة من غلاة الشيعة يقال لهم النصيرية ، والنسبة إليها نُصيري ، وهذه الطائفة ينتسبون إلى رجل اسمه نُصير ، وكان في جماعة قريبا من سبعة عشر نفسا كانوا يزعمون أن **عليا هو الله** ، وهؤلاء شر الشيعة ، وكان ذلك في زمن علي ، فحذّرهم وقال: إن لم ترجعوا عن هذا القول وتجددوا إسلامكم وإلا عاقبتكم عقوبة ما سُمِع مثلها في الإسلام.

وعلى هذا سار أئمة الهدى ، قال علي بن عبد الله الطيالسي: مسحتُ يدي على أحمد بن حنبل ، ثم مسحت يدي على بدني وهو ينظر[1] ، فغضب غضبا شديدا ، وجعل ينفض نفسه ويقول: (عمن أخذتم هذا؟!) ، وأنكره إنكارا شديدا.[2]

فالحاصل أن هذه الأحاديث والآثار تدل دلالة واضحة على تحريم المبالغة في تعظيم النبي ﷺ ، ومن باب أولى من هم دونه من الصالحين.

فصلٌ في بيان مظاهر الغلو في الأنبياء والصالحين

ومظاهر الغلو في الأنبياء والصالحين كثيرة ، تنيف على العشرين مظهرا ، يفعلها بعض الناس في بعض من يُنسبون للصلاح والولاية من الأحياء والموتى ، عافانا الله من ذلك ، وهي كالتالي على سبيل الإجمال:

المظهر الأول: اتخاذ القبور مساجد

المظهر الثاني: بناء المساجد على القبور

ثم أمر بأخدود ، وحُفِر في رَحَبة جامع الكوفة ، فأشعل فيه النار ، وأمرهم بالرجوع فما رجعوا ، فأمر غلامه قنبر حتى ألقاهم في النار ، فهرب واحد من الجماعة اسمه نصير ، واشتهر هذا الكفر منه ، وأن عليا لما ألقاهم في النار التفت واحد وقال: الآن تحققت أنه هو الله ، لأنه بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: لا يعذب بالنار إلا ربُّها ، وكان علي يرميهم في النار وينشد:

إني إذا أبصرت أمرا منكرا أوقدت ناري ودعوت قَنبرا

ولما بلغ ابن عباس ما فعل علي رضي الله عنه قال: لو كنت مكان علي رضي الله عنه كنت أقتلهم وما كنت أحرقهم.

وهذه الطائفة بالحديثة ، بلدة على الفرات.

سمعت الشريف عمر بن إبراهيم الحسيني شيخ الزيدية بالكوفة يقول: لما انصرفت من الشام دخلت الحديثة مجتازا ، فسألوا عن اسمي فقلت: عمر ، فأرادوا أن يقتلوني لأن اسمي عمر ، حتى قلت إني علوي وإني كوفي ، فتخلصت منهم ، وإلا كادوا أن يقتلوني. انتهى كلام السمعاني.

وروى البخاري بسنده عن عكرمة قال: أُتي علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم ، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تعذبوا بعذاب الله) ، ولقتلتهم ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه). «صحيح البخاري» (٦٩٢٢).

[1] أي بقصد التبرك كما يفعله بعض الناس هداهم الله!

[2] «طبقات الحنابلة» (٢١٦/١) ، ترجمة رقم (٣١٦) ، الناشر دار الكتب العلمية.

المظهر الثالث: بناء الغرف والقبب ونحوها على القبور

المظهر الرابع: رفع تراب القبر

المظهر الخامس: اتخاذ السرج على القبور

المظهر السادس: مظاهر متنوعة من مظاهر تعظيم القبور

المظهر السابع: دفن خواص الناس في قبور خاصة

المظهر الثامن: دعاء أصحاب القبور

المظهر التاسع: طلب الدعاء من صالحي الموتى

المظهر العاشر: التوسل بالموتى من الأنبياء والصالحين

المظهر الحادي عشر: تحري دعاء الله عند القبور

المظهر الثاني عشر: السفر إلى القبور

المظهر الثالث عشر: اتخاذ القبور أعيادا

المظهر الرابع عشر: العكوف عند القبور

المظهر الخامس عشر: الذبح لأصحاب القبور

المظهر السادس عشر: الطواف حول القبور

المظهر السابع عشر: الحلف بالصالحين

المظهر الثامن عشر: النذر لأصحاب القبور

المظهر التاسع عشر: اتخاذ الله واسطة بين المخلوق والمخلوق

المظهر العشرون: خوف السر من أصحاب القبور

المظهر الحادي والعشرين: تصوير الصالحين على هيئة تماثيل وصور

المظهر الثاني والعشرين: التبرك بقبور الصالحين

المظهر الثالث والعشرين: تعظيم الأماكن التي مر بها الأنبياء

المظهر الرابع والعشرين: دعوى الربوبية في الصالحين

المظهر الخامس والعشرين: ادعاء علم الغيب لغير الله ، من الكهان وغلاة الصوفية وأشباههم

ومما ينبغي التنبه له أن **بعض تلك المظاهر – وليس كلها – ليس شركاً بحد ذاته ، لكنها وسيلة للوقوع في الشرك ، وما كان حاله كذلك فإنه ممنوع** ، لأن من قواعد الشريعة أن ما كان وسيلة إلى محرم فهو محرم ، والوسائل لها أحكام المقاصد.

والغلو في الصالحين والأولياء سبيل الكفار وأهل البدع الغلاة ، فالشيعة وغلاة الصوفية يعتقدون أن للأولياء والأئمة حق التشريع والتحليل والتحريم لأنهم معصومون – على حد اعتقادهم – ، وعلى هذا فإن أقوالهم حجة يجب اتباعها عندهم كما يزعمون.[1]

والرافضة الغلاة يفضلون أئمتهم المعصومين – بزعمهم – على النبي ﷺ .

وغلاة الصوفية يفضلون كبارهم على النبي ﷺ ، ويسعون في رفعهم لمقام الألوهية والربوبية.[2]

ومن الغلاة من غلوا في تعظيم النبي ﷺ والصالحين حتى عبدوه ، وصرفوا له خالص حق الله تعالى من أفعال العباد ، من دعاء ونذر وذبح وغير ذلك ، أو وصفوه بصفات الله الخاصة به كعلم الغيب ونحو ذلك ، وهذا كثير في عباد القبور عياذا بالله من ذلك.

وكل هذه الاعتقادات زندقة وكفر وإلحاد – والعياذ بالله – ، ومخالفة للنصوص المتواترة وإجماع المسلمين.

وطائفة أخرى من الصوفية عظَّموا النبي ﷺ بأنواع من التعظيم البدعي ، لم يعرفها صحابة رسول الله ﷺ ، كعمل الموالد ، أو التوسل بجاهه ، ونحو ذلك.

وأما أهل السنة والجماعة – جعلنا الله والقارئين منهم – فهم الذين عظموا النبي ﷺ والصالحين التعظيم الشرعي ، واجتنبوا طرق التعظيم البدعي والشركي.

والإسلام دين الوسط ، فكما أنه نهى عن الغلو في الصالحين ؛ فقد نهى عن ذمهم ، وأعظم مظاهر ذلك الاستهزاء بالنبي الكريم ﷺ ، أو غيره من الأنبياء ، فإن هذا من أعظم الكفر ، أو سب الصحابة كما تفعله الرافضة ، أو سب العلماء وتنقصهم والإزراء بهم ، كما يفعله بعض المتحمسين الجهال ، لاسيما من تلوثوا بشيء من فكر الخوارج ، وكذلك الاستهزاء بالقائمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يفعله بعض العلمانيين الذين يريدون التحرر ومسخ المجتمع من الناحية الأخلاقية.

تمت المقدمة بحمد الله ، والآن نشرع في صلب الكتاب ، وهو بيان تلاعب الشيطان بعقول القبوريين ، وهو جزء منتقى من كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» للعلامة ابن القيم رحمه

---

[1] يراجع كتاب «هذه هي الصوفية» لعبد الرحمٰن الوكيل.

[2] انظر كتاب «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» ، ص ٥٩ ، الفصل الرابع: القول بالحلول.

الله ، مستعينين بالله ، ومستلهمين منه التأييد والتوفيق ، والله أعلم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليما كثيرا.

جزء تلاعب الشيطان بعقول القبوريين

{تعريف معنى الإله}[1]

الإله هو الذي تألهُهُ القلوب محبةً وإنابةً وإجلالاً وإكرامًا وتعظيمًا وذلاً وخضوعًا وخوفاً ورجاءً وتوكلاً ، والرب هو الذي يـرُبُّ عبدَهُ[2] ، فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى مصالحه ، فلا إلـه إلا هو ولا رب إلا هو ، فكما أن ربوبية ما سواه أبطلُ الباطل ؛ فكذلك إلهيةُ ما سواه.[3]

---

[1] ص ٤١ .

[2] أي يربيه. انظر «المعجم الوسيط». وفي نسخة علي: (يُربي).

[3] قال ابن جرير الطبري رحمه الله في معنى (الإله):

القول في تأويل قوله تعالى ﴿الله﴾:

قال أبو جعفر: وأما تأويل قول الله تعالى ذكره ﴿الله﴾ ؛ فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عباس: هو الذي يأْلَهُ كل شيء ، ويعبده كل خلق.

وذلك أن أبا كريب حدثنا قال: حدثنا عثمان بن سعيد ، قال حدثنا بشر بن عمارة ، قال حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال: الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين.

ثم ذكر رحمه الله قول رؤبة بن العجاج:

لله درّ الغانيات المدَّهِ سبَّحن واسترجعن من تألُّهي

يعني: من تعبدي وطلبي الله بعملي.

ولا شك أن التأله التفعُّل ، من أَلَه يأْلَهُ ، وأن معنى (أَلَهَ) إذا نُطِق به: عَبَدَ الله.

وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ «فَعَل يفعل» بغير زيادة ، وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع قال: حدثنا أبي عن نافع بن عمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿ويذرك وإلهتك﴾ ، قال: عبادتُك ، ويقال إنه (أي فرعون) كان يُعبد ولا يَعبد.

حدثنا سفيان قال: حدثنا بن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن محمد بن عمرو بن الحسن ، عن ابن عباس: ﴿ويذرك وإلهتك﴾ ، قال: إنما كان فرعون يُعبد ولا يَعبد.

وكذلك كان عبد الله يقرؤها ومجاهد.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين بن داود قال: أخبرني حجاج عن ابن جريج عن مجاهد: قوله ﴿ويذرك وإلهتك﴾ ، قال: وعبادتك.

ولا شك أن الإلهة – على ما فسره ابن عباس ومجاهد – مصدرٌ من قول القائل: (أَلَه اللهَ فلانٌ إلهةً) ، كما يقال: عَبَدَ الله فلانٌ عبادةً ، وعبَر الرؤيا عبارةً ، فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا أن «أَلَـهَ» عَبَدَ ، وأن «الإلهة» مصدرُه. انتهى كلامه رحمه الله.

«تفسير سورة الفاتحة ، القول في تأويل قول الله: ﴿الله﴾ برقم (١٤١)».

ومعنى المُدْه هو المدح ، فيكون معنى المُدَّهِ أي المادِحات. انظر «المحكم والمحيط الأعظم».

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/١): الإله ؛ المعبود.

وقال ابن منظور في «لسان العرب»: التأله ؛ التنسك والتعبد ، والتأليه التعبيد.

ونقل الزجاج عن أبي زيد قوله: ويقال تأله فلان ؛ إذا فعل فعلاً يقربه من الإله.

انظر «تفسير أسماء الله الحسنى» (٢٦/١) ، دار النشر: دار الثقافة العربية ، تحقيق أحمد يوسف الدقاق.

وقال ابن رجب رحمه الله «كلمة الإخلاص» ، ص ٢٥:

والإله هو الذي يطاع فلا يعصى ، هيبة له وإجلالا ، ومحبة وخوفا ورجاء ، وتوكلا عليه ، وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحا في إخلاصه في قول «لا إله إلا الله» ونقصا في توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره: «لا إله إلا الله» ، أي لا معبود إلا هو.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (٢٤٩/١٠): الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال أيضا (٢٠٢/١٣): والإله هو المألوه ، أي المستحق لأن يؤله أي يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل.

وقال رحمه الله تعالى في «طريق الهجرتين» ، فصل في محبة العوام:

فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده.

ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته ، فهذه المسألة قطب رحى الدين الذي عليه مداره ، وإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله.

وقال البقاعي رحمه الله: «لا إله إلا الله» أي انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبودا بحق غير الملك الأعظم ، فإن هذا العِلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون عِلماً إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صِرف.

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن رحمه الله كما في «الدرر السنية» (٢١٨/٢): وتقرير هذا المعنى لكلمة «لا إله إلا الله» هو الموجود في كلام أهل السنة جميعهم. انتهى بمعناه.

وانظر للتوسع ما ذكره أئمة الدعوة في «الدرر السنية من الأجوبة النجدية» (١٠٠/٢ – ١١٢) ، (٨٤/٢ – ١٠٠) ، (٢٢٦/٢ – ٢٤٥) ، (٣٥٠/٢ – ٣٦٢) ، (٢٤٥/٢ – ٢٥٢) ، (٢١١/٢ – ٢٢٦) ، (٢٥٢/٢ –٢٥٥) ، (١٢٢/٢ – ١٢٣) ، (٢٨٩/٢–٣٠٢) ، (١١٦/٢ – ١٢٠)، (٢٠٢/٢ – ٢١١).

{الحاجة إلى التوحيد}[١]

حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتألُّهِهم له كحاجتهم إليه في خلقه لهم ورِزقه إياهم ومعافاة أبدانهم وسَتْر عوراتهم وأَمنُ روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تألهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت «لا إلٰه إلا الله» أحسن الحسنات[٢] ، وكان توحيد الإلٰهية رأس الأمر[٣].

وأما توحيد الربوبية – الذي أقر به المسلم والكافر وقرره أهل الكلام في كتبهم – فلا يكفي وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع ، ولهذا كان حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: أتدري ما حقُّ الله على عباده؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: حقهم عليه أن لا يُعذبهم بالنار.[٤]

{الحاجة إلى التوحيد أشد من الحاجة إلى الغذاء}[٥]

فقرُ العبد إلى أن يَعبد الله سبحانه وحده لا يُشرك به شيئا ليس له نظير فيُقاس به ، لكن يُشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، وبينهما فروق كثيرة ، فإن حقيقة

---

[١] ص ٤٤ – ٤٥ .

[٢] كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ، أمِن الحسنات «لا إله إلا الله»؟
قال: هي أفضل الحسنات.
أخرجه أحمد (١٦٩/٥) وحسنة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٧٣).

[٣] كما في حديث معاذ رضي الله عنه ، وفيه أن النبي ﷺ قال له: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟
قلت: بلى يا رسول الله.
قال: رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد.
رواه أحمد (٢٣١/٥) والترمذي (٢٦١٦) والنسائي في «الكبرى» ، كتاب التفسير ، تفسير سورة السجدة ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، وصححه الألباني رحمه الله.

[٤] رواه البخاري (٦٥٠٠) ، ومسلم (٣٠) ، والترمذي (٢٦٤٣) ، وابن ماجه (٤٢٩٦) ، وأحمد (٢٢٨/٣ ، ٢٣٠).

[٥] ص ٤٦ .

العبد قلبُه وروحُه ، ولا صلاح له إلا بإلٰهه الحق الذي لا إله إلا هو ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح[1] إليه كدحا فملاقيه ، ولا بد له من لقائه ، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعَّم بهذا في حال وبهذا في حال ، وكثيرا ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمِه ومضرته ، وأما إلٰهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال وأينما كان ، فنفسُ الإيمان به ومحبتِه وعبادتِه وإجلالِه وذكرِه هو غذاء الإنسان وقُوتُهُ وصلاحُه وقَوامُه كما عليه أهل الإيمان ، ودل عليه السنة والقرآن ، وشهِدت به الفطرة والجنان[2] ، لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، وبُخِس حظه من الإحسان: (إن عبادته وذِكره وشُكره تكليفٌ ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل ، كالمعاوضة بالأثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان) ، كما هي مقالاتٌ لمن بُخِس حظُّه من معرفة الرحمٰن ، وقلَّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان ، وفرح بما عنده من زَبَدِ الأفكار وزُبالة الأذهان ، بل عبادتُه ومعرفتُه وتوحيدُه وشكرُه قرةُ عين الإنسان ، وأفضل لذة الروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشان ، والله المستعان وعليه التكلان.

{التوحيد سبب الطمأنينة والأمن}[3]

يحبُّ سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ، كما أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ، فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يَسكُنُ القلبُ إليه ويطمئن به ويأنس به ويتنعم بالتوجه إليه ، ومن عَبَد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته ، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أن السماوات والأرض لو كان فيهما إلٰه غيرُه سبحانه لفسدتا – كما قال تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[4] ؛ فكذلك القلب إذا كان فيه معبودٌ غير الله تعالى فسد فسادًا لا يرجى صلاحه إلا بأن يَخرج ذلك

[1] الكدح هو الكد والدأب والسعي. انظر «المعجم الوسيط».

[2] الجَنان – بفتح الجيم – هو القلب.

[3] ص ٤٥ .

[4] سورة الأنبياء: ٢٢ .

المعبود من قلبه ، ويكون الله تعالى وحده إلٰهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه.

{من بركة التوحيد ؛ أن الشيطان ليس له سلطان على المُوحِّد}[1]

أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلَصين المتوكلين ، فقال في سورة الحجر ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين * قال هذا صراط عليَّ مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[2] ، وقال في سورة النحل ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[3] ، فتضمَّن ذلك أمرين:

أحدهما: نفيُ سلطانه ، وإبطاله[4] على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثباتُ سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.[5]

ولما علِم عدو الله أن الله لا يُسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾[6] ، فعلِم عدوُّ الله أن من اعتصم بالله وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله ، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله ، فهؤلاء رعيته ، وهو وليُّهم وسلطانهم ومتبوعهم.

{الشرك نَجَسٌ وخَبَث}[7]

وقد وَسَم الله سبحانه الشرك والزنا واللِّواط بالنجاسة والخُبث في كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك ، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾[8] ، وقوله تعالى في حق اللُّوطية ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت

---

[1] ص ١٦٩ – ١٧٠ .

[2] سورة الحجر: ٣٩ – ٤٢ .

[3] سورة النحل: ٩٩ – ١٠٠ . ومعنى قوله ﴿يتولونه﴾ أي يتولون الشيطان ، والموالاة تعني المحبة والقرب.

[4] أي إبطال سلطانه.

[5] ولذا ترى المجتمعات البعيدة عن التوحيد ، المتشبثة بالشركيات والتعلق بغير الله ، هي أكثرها إصابة بالسحر وتسلط الجن والشياطين عليهم ، نسأل الله العافية.

[6] ص: ٨٢ – ٨٣ .

[7] ص ٩٩ – ١٠١ .

[8] سورة التوبة: ٢٨ .

تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سَوء فاسقين﴾[1] ، وقالت اللوطية ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾[2] ، فأَقرُّوا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس ، وأن لوطا وآلَه مُطهرون من ذلك باجتنابهم له ، وقال تعالى في حق الزناة ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾[3].

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة ونجاسة مخففة ، فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، فإن الله لا يغفر أن يُشرك به ، والمخففة: الشرك الأصغر ، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوق ، والحلِف به ، وخوفه ورجائه[4].

ونجاسة الشرك عينية ، ولهذا جعل سبحانه المشرك نجَسا بفتح الجيم ، ولم يقل إنما المشركون نجِس بالكسر ، فإن النجَس عين النجاسة ، والنجِس بالكسر هو المتنجِّس ، فالثوب إذا أصابه بول أو خمرٌ نَجِسَ ، والبول والخمر نَجَسٌ[5].

فأنجسُ النجاسة الشرك ، كما أنه أظلم الظلم[6] ، فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقذَر الذي تُطلبُ مباعدته والبعدُ منه ، بحيث لا يُلمسُ ولا يُشمُّ ولا يُرى فضلا أن يُخالَط ويُلابَس[7] ،

---

[1] سورة الأنبياء: ٧٤ .

[2] سورة النمل: ٥٦ .

[3] سورة النور: ٢٦ .

[4] الحلف بالمخلوق بحسب حكمه ينقسم إلى نوعين شرك أكبر وشرك أصغر ، فأما الأكبر فيكون إذا قام في قلب الحالف تعظيم المحلوف به كتعظيم الله عز وجل ، فهنا يكون شركا أكبر ، وممن يقع في هذا الذين يهون على أحدهم أن يحلف بالله كاذبا ولا يهون عليه أن يحلف بغيره صادقا.

ويكون الحلف بالله شركا أصغر غير مخرج من ملة الإسلام إذا حلف الحالف بغير الله ، ولا يقوم في قلبه تعظيم المحلوف به كتعظيم الله ، بل أقل منه ، فهنا يكون شرك أصغر ، والواجب ترك هذا كله ، وإذا أراد المؤمن أن يحلف فليحلف بالله.

وكذلك الخوف ، فإذا خاف العبد من مخلوق مثله خوف السر فهذا شرك أكبر ، كمن يخاف من الأحجار أو من أصحاب القبور أن يصيبوه بمشيئتهم وتدبيرهم بمرض أو موت أو غير ذلك ، فهذا الخوف يدخل الإنسان في حظيرة الشرك بالله ، وهو اعتقاد النفع والضر في غير الله ، وأما الخوف الطبيعي الحسي فليس فيه إثم ، كمن يخاف من عدو صائل أو حيوان أو نحو ذلك.

وكذلك الرجاء ، فمن رجا غير الله شيئا من خصائص الله فقد أشرك ، كمن يرجو الجنة من غير الله ، والرجاء عبادة قلبية لا يجوز صرفها لغير الله.

وأما الأمور التي يقدر عليها المخلوق فلا بأس من رجاءه أن يعطيه إياها ، مع رجاء الله أولا أن يهدي ذاك المخلوق لأن يعطيه إياها ، لأن اعتماد القلب على الله دائما أمر مطلوب ، والله أعلم.

[5] ذهب ابن عثيمين رحمه الله إلى أن نجاسة الخمر معنوية لا حسية ، سمعته منه في الحرم المكي ، ثم وجدته في «الشرح الممتع (٤٢٩/١)». وكذا قال الألباني رحمه الله ، انظر «تمام المنة» ص ٥٤ – ٥٥ .

[6] كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ : أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك.

رواه البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦) ، واللفظ له.

[7] ملابسته أي مخالطته. انظر «المعجم الوسيط».

لقذارته ونُفرة الطباع السليمة منه ، وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياةً كان إبعاده لذلك أعظم ونفرته منه أقوى.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب أو تؤذيهما معا ، والنجَس قد يؤذي برائحته وقد يؤذي بمُلابسته وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة ، وتارة تكون معنوية باطنة ، فيغلِب على الروح والقلب الخُبْث والنجاسة ، حتى إن صاحب القلب الحي ليشُم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها كما يتأذى مَن شمَّ رائحة النَّتْن ، ويظهر ذلك كثيرا في عرقِه ، حتى يجد لِرائحة عرقه نتنًا ، فإن نتْن القلب والروح يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره ، والعرق يَفيض من الباطن ، ولهذا كان الرجل الصالح طَيِّب العرَق[1] ، وكان رسول الله ﷺ أطيب الناس عرقا ، قالت أم سُليم – وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه وهي تلتقطه –: هو مِن أطيب الطيب.[2]

فالنفس النجسة الخبيثة يَقوى خُبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد ، والنفس الطيبة بضدها ، فإذا تجردت وخرجت من البدن وُجِد لهذه كأطيب نفحةِ مِسك وُجدت على وجه الأرض ، ولتلك كأنتن ريحِ جيفةٍ وُجدت على وجه الأرض.

{عشق الصور نوع تعبد لها}[3]

عِشقُ الصور المحرمة نوعُ تعبدٍ لها ، بل هو من **أعلى أنواع التعبد** ، ولاسيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيُّماً ، **والتَّـتيم التعبـد** ، فيصيرُ العاشق عابدا لمعشوقه ، وكثيرا ما يغلب حبُّه وذكره والشوق إليه والسعي في مرضاته وإيثار محابِّه على حب الله وذكرِه والسعيِ في مرضاته ، **بل كثيرا ما يَذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، ويصير متعلقا بمعشوقه من الصور كما هو مشاهد ، فيصير المعشوق هو إلٰههُ من دون الله عز وجل** ، يُقَدم رضاه وحبه على رضى الله

---

[1] في قوله رحمه الله أن (الرجل الصالح طيب العرق) نظر من وجهين:

الأول: اعتماده في تقريره هذا على طِيب عرق النبي ﷺ ، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لا يقاس بغيره.

الثاني: ما جاء في الشريعة من الغسل والتنظف والتطيب من العرق وحلق مواضعه.

فعلى هذا فعرق المؤمن لا يوصف بأنه طيِّب ، بل هو من المستقذرات ، كالنخام ونحوه ، والله أعلم.

[2] رواه مسلم (٢٣٣١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل علينا النبي ﷺ فقال عندنا (أي نام القيلولة) ، فعرِق ، وجاءت أمي بقارورة ، فجعلت تسلت العرق (أي تمسحه) فيها ، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: يا أم سليم ، ما هذا الذي تصنعين؟ قالت: هذا عَرَقُك ، نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب.

[3] ص ١٠٦ – ١٠٨ .

وحبِّه ، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله ، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله ، ويتجنب مِن سخطِه ما لا يتجنب من سخط الله ، فيصير آثرُ عنده من ربه حبا وخضوعا وذلا وسمعا وطاعة.

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكى الله سبحانه العشقَ عن المشركين من قوم لوط وعن امرأةِ العزيز وكانت إذ ذاك مشركة ، **فكلما قوِي شرك العبد بُلِيَ بعشق الصور ، وكلما قوي توحيده صُرف ذلك عنه** ، والزنا واللواط كمالُ لذَّتهما[1] إنما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه ، وإنما لتنقله من محل إلى محل لا يبقى عشقُه مقصورا على محل واحد ، بل ينقسم على سِهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده.

فليس في الذنوب أفسدُ للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله ، **فإنهما من أعظم الخبائث** ، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُد ممن هو طيبٌ لا يصعد إليه إلا طيب[2] ، وكلما ازداد خُبثا ازداد من الله بعدا ، ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في «كتاب الزهد»: لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلِج[3] الزناة ملكوت السماء.

ولما كانت هذه[4] حال الزنا ؛ كان[5] قرينا للشرك في كتاب الله ، قال تعالى ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين﴾[6].

{قصة تحوُّل الناس من التوحيد إلى الشرك منذ عهد نوح عليه السلام إلى بعثة النبي ﷺ }[7]

قال ابن القيم بعد أن ذكر قصة ابني آدم:

ثم جرى الأمر على السَّداد والاستقامة ، والأمة واحدة ، والدين واحد والمعبود واحد ، قال تعالى ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك

---

[1] في نسخة عزير: (لذَّته) ، والمثبت من نسخة (علي).

[2] أي الله عز وجل ، وقد جاء وصف الله بهذه الصفة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا. رواه مسلم (١٠١٥).

[3] أي يدخل.

[4] في نسخة عزير: (هذا) ، والمثبت من نسخة (علي).

[5] أي الزنا.

[6] سورة النور: ٣ .

[7] ص ٩٥٤- ٩٥٧ .

لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾[1] ، وقال تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[2].

قال سعيد عن قتادة: ذُكِر لنا أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون[3] كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله عز وجل نوحا ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض ، وبُعِث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق.[4]

وقال ابن عباس: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ ، كانوا على الإسلام كلهم.[5]

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أمة واحدة ، كانوا كفارا.

وهذا قول الحسن وعطاء ، قالا: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمة واحدة على ملة واحدة وهي الكفر ، كانوا كفارا كلُّهم أمثال البهائم ، فبعث الله نوحا وإبراهيم والنبيين.

وهذا القول ضعيف جدا ، وهو منقطع عن ابن عباس ، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة ، حدثنا شيبان بن فرُّوخ ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانوا على الإسلام كلهم.[6]

وهذا هو الصواب **قطعا** ، فإن قراءة أبي بن كعب ﴿فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ ، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾[7].

---

[1] سورة يونس: ١٩ .

[2] سورة البقرة: ٢١٣ .

[3] رواه ابن جرير عن ابن عباس في تفسير الآية ، وانظر للتوسع «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨ ، ٣٢٨٩).

[4] لم أجده بهذا النص وإنما قريبا منه ، رواه ابن جرير في تفسير آية البقرة المتقدمة ، وليس في الإسناد ذكر سعيد ، بل معمر عن قتادة قتادة قال: كانوا على الهدى جميعا فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، فكان أول نبي بعث نوح.

وأما ذكر العشرة قرون فرواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير نفس الآية قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وهذا سند قوي كما ذكر الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٨٩).

وقد ورد كون بين آدم ونوح عشرة قرون في حديث آخر ، انظر «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

[5] رواه ابن أبي حاتم في تفسير الآية برقم (١٥١٨٣).

[6] تقدم تخريجه قريبا.

[7] سورة يونس: ١٩ .

والمقصود أن العدو كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين: كفارا ومؤمنين ، فكادَهم بعبادة الأصنام وإنكار البعث ، وكان أول ما كاد به عُبَّادَ الأصنام من جهة العكوف على القبور وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها ، كما قصَّ الله سبحانه قصتهم في كتابه فقال ﴿وقالوا لا تذرُن آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾[1] ، قال البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما:

هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا[2] وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِخ[3] العلم عُبِدت.[4]

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: كانوا قوما صالحين من بني آدم ، كان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم: (لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم) ، فصوَّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال: (إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر) ، فعبدوهم.[5]

{الفتنة بتعظيم القبور هي أعظم وأول فتنة فَتَن الشيطان بها الناس}[6]

فصلٌ ، ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يُرِد الله تعالى فتنته ما أوحاه قديما وحديثا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور ، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبِد أربابها من دون الله ، وعُبدت قبورهم واتُّخِذت أوثانا ، وبُنِيت عليها الهياكل ، وصُوِّرت صور أربابِها فيها ، ثم جُعلت تلك الصور أجسادا لها ظل ، ثم جُعلت أصناما وعُبدت مع الله.

---

[1] سورة نوح: ٢٣ .

[2] تقدم تعريف النُّصب.

[3] أي تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية».

قال مقيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

[4] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[5] رواه ابن جرير في تفسير الآية من سورة نوح.

[6] ص: ٣٤٦ – ٣٥٢ .

وكان أولُ هذا الداءِ العظيم في قوم نوح ، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول ﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا * ومكروا مكرا كبارا * وقالوا لا تذرُن آلهتكم ولا تذرُن ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيرا﴾[1] .

قال ابن جرير: وكان من خَبرهم فيما بلغنا ؛ ما حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا مِهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس ، ﴿ويعوق ونسرا﴾ يقال: كانوا قوما صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: (لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكَرناهم) ، فصورهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال: (إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر) ، فعبدوهم.[2]

قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: كان بينَ آدم ونوحٍ عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على الإسلام.[3]

حدثنا[4] ابن عبد الأعلى ، حدثنا عبد الرزاق عن مَعمر عن قَتادة في هذه الآية قال: كانت[5] آلهةً يعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العربُ بعد ذلك ، فكان «وَد» لكلبٍ بدَومة الجندل ، وكان «سُواع» لهذيل ، وكان «يَغوث» لبني غُطيف من مراد بالجرف عند سبأ ، وكان «يَعوق» لهمدان ببلخع ، وكان «نسر» لذي كلاع من حِميَر.

---

[1] سورة نوح: ٢١ – ٢٤ .

[2] تفسير ابن جرير الطبري ، سورة نوح ، آية ٢٣ .

[3] نص الأثر كالتالي: قال ابن جرير رحمه الله: حدثنا ابن حميد ، قال: ثنا مهران ، عن سفيان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، قال: فذكره.
قلت: ولعل عكرمة أخذه عن شيخه ابن عباس رضي الله عنهما ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنه: كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.
رواه ابن جرير في تفسير سورة البقرة: ٢١٣ ، وبنحوه عن قتادة ومجاهد والسدي ، ورواه الحاكم (٥٤٦/٢) وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي ، وعلق د. عبد الله بن مراد السلفي في كتابه «تعليقات على ما صححه الحاكم ووافقه الذهبي» ص ٢٣٣ فقال: الإسناد فيه أبو داود هو الطيالسي ، علق له البخاري ، فالحديث على شرط مسلم.
وانظر تصحيح هذا الأثر عن ابن عباس في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٨٩).
وللفائدة فقد روى ابن حبان في «صحيحه» (٦١٩٠) ، واللفظ له ، والحاكم في «المستدرك» (٢٦٢/٢) بنحوه ، والطبراني في «الكبير» (١١٨/٨-١١٩) بنحوه ، عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أنبيٌّ كان نوح؟
قال: نعم ، مكلَّم.
قال: فكم بينه وبين آدم؟
قال: عشرة قرون.
وانظر تصحيح الألباني له في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨) ، والشيخ شعيب في تعليقه على «صحيح ابن حبان».

[4] القائل (حدثنا) هو ابن جرير.

[5] أي الأصنام وَد وسواع ويغوث ويعوق ونسرا.

وقال الوالبي[١] عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح.[٢]

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعدُ[٣] ، أما «وَد» فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما «سُواع» فكانت لهذيل ، وأما «يَغوث» فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجرف عند سبأ ، وأما «يعوق» فكانت لهَمْدان ، وأما «نَسر» فكانت لحِمْير لآل ذي الكَلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا[٤] أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِي العلم عُبدت.[٥]

وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.[٦]

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين ؛ فتنة القبور وفتنة التماثيل ، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها ، أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة يقال لها «مارية» ، فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك قومٌ إذا مات فيهم العبد الصالح – أو الرجل الصالح – بنَوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله.[٧]

وفي لفظ آخر في «الصحيحين» ؛ أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسةً رأينها.[٨]

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور ، وهذا كان سبب عبادة اللات.

---

[١] هو الإمام الحافظ المقرىء المفسر ، أبو محمد ، سعيد بن جبير بن هشام ، الأسدي الوالبي ، مولاهم الكوفي ، من رواة الحديث النبوي عن الصحابة ومن بعدهم ، توفي سنة ٩٥ . انظر ترجمته في «السير» (٣٢١/١٧).

[٢] هذا نص ابن جرير: حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله ﴿ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يعوق ويغوث ونسرا﴾ ، قال: هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح.

[٣] أي بعد عصر نوح عليه السلام.

[٤] أي ماتوا.

[٥] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[٦] انظر «الدر المنثور» ، تفسير سورة نوح ، ٢١ – ٢٤ .

[٧] رواه البخاري (٤٣٤) ، ومسلم (٥٢٨).

[٨] رواه البخاري (١٣٤١) ومسلم (٥٢٨).

فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾[1] ، قال: كان يلُتُّ لهم السَّوِيق[2] ، فمات ، فعكفوا على قبره.

وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلُتُّ السويق للحاج.[3]

فقد رأيتَ أن سبب عبادة وَد ويغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم ، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها ، كما أشار إليه النبي ﷺ .

قال شيخنا[4]: (وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرا من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشرَكت بتماثيلِ القوم الصالحين ، وتماثيلٍ يزعمون أنها[5] طَلاسم[6] للكواكب ونحو ذلك ، **فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشركِ بخشبة أو حجرٍ** ، ولهذا تجد أهل الشرك كثيرا يتضرعون عندها[7] ، ويخشعون ويخضعون ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ، ولا وقت السَّحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها ، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا[8] وإن لم يقصِد المصلي بركة البقعةِ بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها[9] ، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاةَ فيها للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون سدا للذريعة.

---

[1] سورة النجم: ١٩ .

[2] السويقُ طعام يصنع من مدقوق الحنطة والشعير ، سمي بذلك لانسياقه في الحَلق ، واللَّتُّ هو الخلطُ بالماء أو السمن. انظر «المعجم الوسيط» و«تفسير غريب ما في الصحيحين» للحميدي.

[3] رواه ابن جرير في تفسير هذه الآية.

[4] أي ابن تيمية رحمه الله ، والنقل من «اقتضاء الصراط» (٢/٦٨٠-٦٨١).

[5] في نسخة عزير (أنه) ، والمثبت من نسخة (علي) ، ولا شك أنه الصواب.

[6] طلاسم جمع (طَلْسَم) ، هي خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى ، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي. انظر «المعجم الوسيط».

[7] أي عند قبورهم.

[8] جاء هذا النهي في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام. رواه الترمذي (٣١٧) وأبو داود (٤٩٢) وابن ماجه (٧٤٥) ، وصححه الألباني رحمه الله.

[9] دليله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا يتحرى أحدكم فيصلي عند طلوع الشمس ولا عند غروبها. رواه البخاري (٥٨٥) ومسلم (٨٢٨).

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة في تلك البقعة ؛ فهذا عين المحادةِ لله ورسولِه ، والمخالفةِ لدينه ، وابتداعِ دين لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علِموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها ، وأنه لعن من اتخذها مساجد ، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها ، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه ، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة).[1]

(وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه ، وطائفة أطلقت الكراهة ، والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحريم ، إحسانا للظن بالعلماء ، وأن لا يُظن بهم أن يُجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعنُ فاعله والنهي عنه ، ففي صحيح مسلم عن جُندَب بن عبد الله البجلي قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ[2] وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك.[3]

وعن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نُزِل[4] برسول الله ﷺ طفِق[5] يَطرحُ خميصة[6] له على وجهه ، فإذا اغتمَّ كشفها ، فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، يحذر ما صنعوا.[7] متفق عليه.[8]

وفي الصحيحين أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.[9]

وفي رواية مسلم: لعن الله اليهود **والنصارى** ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

---

[1] انتهى هنا نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية من «الاقتضاء» (٢/٦٨٠-٦٨١) ، بتصرف من ابن القيم رحمه الله.

[2] أي خمس أيام.

[3] برقم (٥٣٢).

[4] أي حضر الموت ونزل به.

[5] طَفِق أي أخذ في فعل ما. انظر «النهاية».

[6] الخميصة كِساء له أعلام.

[7] هذه الجملة من قول عائشة رضي الله عنها.

[8] رواه البخاري (٤٣٥) ، ومسلم (٥٣١).

[9] رواه البخاري (٤٣٧) ، ومسلم (٥٣٠).

فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته ، ثم إنه لَعن وهو في السياق[1] من فَعل ذلك من أهل الكتاب ليُحذِّر أمته أن يفعلوا ذلك.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائِهم مساجد) ، ولولا ذلك لأُبرز قبرُه ، غير أنه خُشِي أن يُتخذ مسجدا)[2]. متفق عليه.[3]

وقولها (خُشِي) هو بضم الخاء ؛ تعليلا لمنع إبراز قبره.

وروى الإمام أحمدُ في «مسنده»[4] بإسناد جيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد.

وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

رواه الإمام أحمد.[5]

وعن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج.

رواه الإمام أحمد وأهل السنن).[6]

---

[1] أي سياق الموت عند نزع روحه الشريفة.

[2] ما بين القوسين من كلام عائشة.

[3] رواه البخاري (١٣٣٠) ، ومسلم (٥٢٩).

[4] (٤٣٥/١).

[5] (١٨٤/٥ ، ١٨٦) ، وقال محققو «المسند»: صحيح لغيره.

[6] انتهى هنا نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية من «الاقتضاء» (٦٧٢/٢ – ٦٧٥) ، بتصرف من ابن القيم رحمه الله.

وللعلم فإن الفقرة الثانية في الحديث ضعيفة ، وهي قوله: (والسُّرُج) ، انظر «السلسلة الضعيفة» برقم (٥٢٥) ، ولكن هذا لا يعني أن اتخاذ السرج والمصابيح غير ممنوع ، بل هو ممنوع لكونه من مظاهر تعظيم القبور ، والذين يُسرجون القبور يقصدون بذلك تعظيم الميت بإنارة قبره ، وهذه مخالفة صريحة لهدي النبي ﷺ وصحابته ، فقد مات النبي ﷺ وصحابته ولم يوص أحد منهم بأن يضاء قبره ولم يُفعل ذلك بأحد منهم ، وهم أولى الناس بذلك لو كان مشروعا.

ثم إن في إيقاد السرج على القبور صرف للمال في غير فائدة ، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال ، قال ابن قدامة في «المغني» (٤٤٠/٣ – ٤٤١) كتاب الجنائز:

ولا يجوز اتخاذ السرج على القبور لأن فيه تضييعا للمال في غير فائدة ، وإفراطا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام. انتهى مختصرا.

ولهذا فقد عدَّ ابن حجر الهيتمي إسراج القبور من كبائر الذنوب ، فقال في كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر»: فقال:

الكبيرة الحادية والثانية والثالثة والعشرون بعد المائة: اتخاذ المساجد أو السرج على القبور ، وزيارة النساء لها ، وتشييعهن الجنائز.

وقال الشيخ محمد بن يحيى بن محمد الكندهلوي الحنفي في معرِض كلام له عن إسراج المصابيح على القبور في كتابه «الكواكب الدراري»:

وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أنس بن مالك يُصلي عند قبر فقال: القبر ، القبر.[1]

وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة رضي الله عنهم ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور ، وفِعلُ أنس لا يدل على اعتقاده جوازه ، فإنه لعله لم يره ، أو لم يعلم أنه قبر ، أو ذَهَل عنه ، فلما نبهه عمر تنبه.[2]

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ : الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام. رواه الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ، وصححه أبو حاتم بن حبان.[3]

وأبلغ من هذا أنه نهى عن الصلاة إلى القبر ، فلا يكون القبر بين المصلي وبين القبلة ، فروى مسلم في «صحيحه»[4] عن أبي مرثد الغنوي ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها.

وأما اتخاذ السرج عليها ؛ فمع ما فيه من إسراف في ماله المنهي عنه بقوله تعالى ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾ ؛ ففيه تشبه باليهود ، فإنهم كانوا يسرجون المصابيح على قبور كبرائهم. انتهى.

فإن قيل: ما حكم الإنارة بالسراج ونحوه من أجل الدفن بالليل ، فالجواب أنه لا بأس به للحاجة ، كرؤية الطريق ومكان الدفن ونحو ذلك.

مسألة:

طرح الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله سؤالا في شرحه لـ «كتاب التوحيد» ، باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصَيِّرها أوثانا تعبد من دون الله ، قال رحمه الله:

وهل يدخل في اتخاذ السُّرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقاً للأسباب الآتية:

١- أنه ليس هناك ضرورة.

٢- أن الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبين لهم الأمر ، ويمكنهم أن يحملوا سراجاً معهم.

٣- أنه إذا فُتح هذا الباب ، فإن الشر سيتسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد ، فلو فرضنا أنهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت ، فمن الذي يتولى قفل هذه الإضاءة؟

الجواب: قد تُترك ثم يبقى كأنه مُتَّخذٌ عليها السرج ، فالذي نرى أنه يُمنع نهائياً.

[1] تقدم تخريجه.

[2] بل هو أمامه ولكنه لم يشعر به ، وقد تقدم ذكر هذا الأثر ونصه: عن أنس قال: قمت يوما أصلي وبين يدي قبر لا أشعر به ، فناداني عمر: (القبر ، القبر) ، فظننت أنه يعني القمر ، فقال لي بعض من يليني: إنما يعني القبر ، فتنحيت عنه. رواه البيهقي (٤٣٥/٢).

[3] تقدم تخريجه.

[4] برقم (٩٧٢).

الوجوه الثمانية لبطلان دعاء غير الله

{الوجه الأول: عجز المدعوِّين من المخلوقين}[1]

المخلوقُ ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هُدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل الله وحده هو الذي يملك له ذلك كله ، قال تعالى ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يُردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾[3] ، وقال تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[4] ، وقال تعالى عن صاحب يٰس ﴿ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمٰن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقِذون﴾[5] ، وقال ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إلٰه إلا هو فأنى تؤفكون﴾[6] ، وقال تعالى ﴿أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمٰن إن الكافرون إلا في غرور * أمَّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور﴾[7] ، فجمع سبحانه بين النصر والرزق ، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه وينصره ، ويجلب له منافعه ويرزقه ، فلا بد له من ناصر ورازق ، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق ، فهو الرزاق ذو القوة المتين ، ومن كمالِ فطنةِ العبد ومعرفته أن يعلم أنه إذا مسَّه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره ، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويُذكر أن الله سبحانه أوحى إلى بعض أنبيائه: (أدرِك لي لطيفَ الفطنة وخفِيَّ اللُّطف ، فإني أحب ذلك.

قال: يا رب ، وما لطيف الفطنة؟

---

[1] ص ٥١ – ٥٣ ، باختصار يسير.

[2] سورة فاطر: ٢ .

[3] سورة يونس: ١٠٧ .

[4] سورة آل عمران: ١٦٠ .

[5] سورة يٰس: ٢٣ .

[6] سورة فاطر: ٣ .

[7] سورة الملك: ٢٠ – ٢١ ، ومن الجدير الاستشهاد به في هذا السياق قوله تعالى ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾.

قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أوقعتُها ، فسلني أرفعها.

قال: وما خَـفِيُّ اللطف؟

قال: إذا أتتك حبة فاعلم أني ذكرتك بها).

وقد قال تعالى عن السحرة ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾[1] ، فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلَؤه[2].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عمران قال: سمعت وهباً يقول: قال الله عز وجل في بعض كتبه: بعزتي ، إنه من اعتصم بي ، فإن كادته السماوات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ؛ فإني أجعل له من ذلك مخرجا ، ومن لم يعتصم بي فإني أقطعُ يديه من أسباب السماء ، وأخسِفُ به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، ثم أكِلُـهُ إلى نفسه ، كفى بي لعبدي مالاً ، إذا كان عبدي في طاعتي أَعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني ، فأنا أعلم بحاجته التي تَرفُقُ به منه.

قال أحمد: وحدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو سعيد المؤدِّب ، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: لقيتُ وهبَ بن مُنَبِّه وهو يطوف بالبيت فقلت له: حدثني حديثا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجِز.

قال: نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام: يا داود ، أمَا وعزتي وعظمتي ، لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ؛ إلا جعلت له من بينِهنَّ مخرجا ، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبدٌ من عبادي بمخلوق دوني ، أعرف ذلك من نيته ؛ إلا قطعتُ أسباب السماء من يده ، وأسَخْتُ[3] الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالي بأي واد هلك.

... وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى والاستعانة به ودعاءه ومسألته دون ما سواه ، ويقتضي أيضا محبته وعبادته ، لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه.

---

[1] سورة البقرة: ١٠٢ .

[2] أي يحفظه.

[3] في «المعجم الوسيط» السَّخاخ – بفتح السين وتشديدها وفتح الخاء – هي الأرض اللينة الحرة التي لا رمل فيها ، والمقصود أي خسفت به الأرض ، فيكون المعنى موافق للأثر الذي قبله.

{الوجه الثاني: التعلق بغير الله مُضِرٌّ إذا زاد عن الحد والحاجة}[1]

تعلُّقُ العبد بما سوى الله تعالى مضرةٌ عليه إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته ، غير مستعين به على طاعة الله ، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك ، ولو أحب سوى الله ما أحب فلا بد أن يُسلَبَه ويفارقه ، فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضره محبته ويعذب بمحبوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، **والغالب أنه يُعذب به في الدارين** ، قال تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[2] ، وقال تعالى ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾[3].

{الوجه الثالث: أن المخلوق المعبود يَخذل من عبده يوم القيامة}[4]

اعتمادُ العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد ، عكس ما أمَّله منه ، فلابد أن يُخذل من الجهة التي قَدَّر أن يُنصر منها ، ويُذم من حيث قدَّر أن يُحمد ، وهذا أيضا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب ، قال تعالى ﴿واتخَذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾[5]، وقال تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾[6] ، أي يغضبون لهم ويُحاربون كما يغضب الجُند ويحارِبون عن أصحابهم وهم لا يستطيعون نصرهم ، بل هم كَلٌّ[7] عليهم ، وقال تعالى ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب﴾[8] ، أي: غير تخسير ، وقال تعالى ﴿فلا

---

[1] ص ٥٤ .

[2] سورة التوبة: ٣٤ – ٣٥ .

[3] سورة التوبة: ٥٥ .

[4] سورة ص ٦٣ – ٦٤ .

[5] سورة مريم: ٨١ – ٨٢ .

[6] سورة يٰس: ٧٤ – ٧٥ .

[7] الكلٌّ هو من كان عبأً على غيره. انظر «المعجم الوسيط».

[8] سورة هود: ١٠١ .

﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين﴾[1] ، وقال تعالى ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا﴾[2] ، فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد والثناء تارة ، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه ، ويحصل له الخِذلان والذم.

والمقصود أن هٰذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق ، فصلاحُ القلب وسعادتُه وفلاحُه في عبادةِ الله سبحانه والاستعانةِ به ، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

{الوجه الرابع: أن المخلوق لا يريد منفعة المخلوق لذاته ، أما الله عز وجل فيريد ذلك}[3]

اللهُ سبحانه غني كريم ، عزيز رحيم ، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه ، يريد به الخير ، ويكشف عنه الضر ، لا لجلب منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة منه وإحسانا ، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قلة ولا ليتَعزَّز بهم من ذلة ، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ولا ليدفعوا عنه ، كما قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[4] ، وقال تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل﴾[5].

وهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل كما يوالي المخلوق المخلوق ، وإنما يوالي أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم ، وأما العباد فإنهم كما قال تعالى ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾[6] ، فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجتِه[7] إلى ذلك وانتفاعِه به عاجلا أو آجلا ، ولولا تصوُّر تصوُّر ذلك النفع لما أحسن إليه ، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه ، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه ، فإنه إما أن يُحسن إليه لتوقُّعِ جزائه في العاجل ، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء ومُعاوَضٌ بإحسانه ، أو لتوقُّعِ حمده وشكره ، فهو أيضا إنما يحسن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح ، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى

---

[1] سورة الشعراء: ٢١٣ .

[2] سورة الإسراء: ٢٢ .

[3] سورة ص ٦٤ – ٦٦ .

[4] سورة الذاريات: ٥٦ – ٥٨ .

[5] سورة الإسراء: ١١١ .

[6] سورة محمد: ٣٨ .

[7] أي الفرد من الناس.

الغير ، وإما أن يريد الجزاء من الله في الآخرة ، فهو أيضا محسنٌ إلى نفسه بذلك ، وإنما أخَّر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته ، فهو غير ملومٍ في هذا القصد ، فإنه فقير محتاج ، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته ، فكمالُه أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه[1] ، وقال تعالى ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾[3].

وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ :

يا عبادي إنكم لن تبلُغوا ضَرِّي فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أُوفِّيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.[4]

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد انتفاعه بك ، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا لانتفاعه به ، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة ، بخلاف إرادة المخلوق نفعك ، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك ولو بتحمل مِنَّته.

فتدبر هذا ، فإن ملاحظته تمنعك **أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله ، أو تطلب منه نفعا أو دفعا ، أو تُعلِّق قلبك به** ، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعِك ، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض ، وهو حال الولد مع والده ، والزوج مع زوجه ، والمملوك مع سيده ، والشريك مع شريكه ، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم ، وأحسن إليهم لله ، وخاف الله فيهم ولم يَخَفْهم مع الله ، ورجا الله بالإحسان إليهم ولم يرجُهم مع الله ، وأحبهم لحب الله ولم يُحبهم مع الله ، كما قال أولياء الله ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءا ولا شكورا﴾[5].

---

[1] وذلك امتثالا لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. رواه مسلم (٢٦٦٤).

[2] سورة الإسراء: ٧ .

[3] سورة البقرة: ٢٧٢ .

[4] رواه مسلم (٢٥٧٧) ، واللفظ الذي ساقه ابن القيم مختصر.

[5] سورة الإنسان: ٩ .

{الوجه السادس: أن المعبودين من غير الله لا يهمهم إلا قضاء حوائجهم من عابديهم وإن أضر ذلك بعابديهم}[1]

غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك وإن أضرَّ ذلك بدينك ودنياك ، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك[2] ، والرب تعالى إنما يريدك لك ، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته ، ويريد دفع الضرر عنك ، فكيف تُعلِّق أملك ورجاءك وخوفك بغيره؟

وجِماع هذا أن تعلم أن الخلق لو اجتمعوا كلُّهم على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا كلُّهم على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك[3] ، قال تعالى ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[4].

{الوجه الخامس: جهل المعبود بحاجة من عَبَدَهُ}[5]

العبد لا يعلم مصلحتك حتى يُعَرِّفه الله تعالى إياها ، ولا يَقدر على تحصيلها لك حتى يُقدِّره الله تعالى عليها ، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة ، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه ، وهو الذي بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فتعلُّق القلب بغيره رجاءً وخوفاً وتوكلاً وعبوديةً ضررٌ محض لا منفعة فيه ، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحدُهُ الذي قدَّرها ويسَّرها وأوصلها إليك.

{الوجه السابع: أن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين}[6]

لما كان الشرك أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات كان أبغض الأشياءِ إلى الله وأكرها له وأشدها مقتا لديه ، ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه ، وأخبر أنه

---

[1] ص ٦٧ .

[2] ومن المعلوم أن المعبود من دون الله إن كان راضيا بذلك فإنما يريد الشهرة والعلو في الأرض ، فهذه حاجته ، أما الشيطان الذي هو المعبود الحقيقي فحاجته ومهمته إضلال الناس عن التوحيد.

[3] جاء هذا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٣٠٣/١) ، وصححه الألباني.

[4] سورة التوبة: ٥١ .

[5] ص ٦٦ – ٦٧ .

[6] ص ١٠١- ١٠٣ ، بتصرف يسير جدا.

لا يغفره ، وأن أهله نجَس ، ومنعهم من قربان حرمِهِ ، وحرَّم ذبائحهم ومناكِحهم ، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين ، وجعلهم أعداء له – سبحانه – ولملائكته ورسله وللمؤمنين ، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأن يتخذوهم عبيدا[1] ، وهذا لأن **الشرك هضمٌ لحق الربوبية ، وتنقُّصٌ لعظمة الإلهية ، وسوء ظن برب العالمين** ، كما قال تعالى ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا﴾[2] ، فلم يُجمَع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جُمع على أهل الإشراك ، فإنهم ظنوا به ظن السَّوء حتى أشركوا به ، ولو أحسنوا به الظن لوحَّدوه حقَّ توحيده ، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدَروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه[3] ، وكيف يَقدُرُه حق قدره من جعل له عِدلا ونِدا ، يُحبه ويخافه ويرجوه ويذِل له ويخضَع له ويهرُب من سخطه ويؤثر مرضاته ، قال تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله﴾[4] ، وقال تعالى ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدِلون﴾[5] ، أي يجعلون له عِدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم ، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم ، وعرَفوا وهم[6] في النار أنها كانت ضلالا وباطلا ، فيقولوا لآلهتهم وهم في النار معهم ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾[7].

ومعلومٌ أنهم ما سوَّوهم به في الذات والصفات والأفعال ، ولا قالوا إن آلهتهم خَلقت السماوات والأرض ، وإنها تحيي وتميت ، وإنما سوَّوها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها ، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن يَنتسِب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم يَنسُبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين ، وما ذنبهم إلا أن قالوا إنهم عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وإنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا ، بل قد حرَّم الله شفاعتهم لهم ، ولا يشفعون لأهل

---

[1] أي: وأباح لأهل التوحيد أن يتخذوهم عبيدا.

[2] سورة الفتح: ٦ .

[3] وهي في سورة الأنعام: ٩١ ، وسورة الحج: ٧٤ ، وسورة الزمر: ٦٧ .

[4] سورة البقرة: ١٦٥ .

[5] سورة الأنعام: ١ .

[6] كلمة (وهم) ليست مثبتة في نسخة عزير ، وهي مثبتة في نسخة (علي).

[7] سورة الشعراء: ٩٨ – ٩٩ .

التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمرَ كله لله ، والشفاعةُ كلها له سبحانه ، والوِلاية له ، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع.

وقال أيضا[1]:

الشرك والتعطيل[2] مبنيان على سوء الظن بالله ، ولهذا قال إمام الحنفاء عليه السلام[3] لخصمائه من المشركين ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين﴾[4] ، وإن كان المعنى: (ما ظنكم به أن يعامِلَكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندا؟) ، فأنت تجد تحت هذا التهديد: (ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟) ، فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزيرٍ أو ظهيرٍ أو عونٍ ، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يَظن أنه سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يَظن بأنه لا يَعلم حتى يُعلِمَهُ الواسطة.

أوْ لا يَرحم حتى تجعلَه الواسطة يرحم.

أوْ لا يكفي عبدَهُ[5] وحده.

أو لا يفعل ما يريد بالعبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق ، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعِه به وتكثُّره به من القلة وتعزُّزه به من الذلة.

أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن تَرفع تلك الحاجات إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا ، **وهذا أصل شرك الخلق**.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبُعده عنهم حتى تَرفعُ الوسائطُ إليه ذلك.

---

[1] ص ١٠٣- ١٠٥ .

[2] التعطيل في اللغة هو الإفراغ والإخلاء ، وفي الإصطلاح الشرعي ؛ إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات ، أو بعضها ، فهو نوعان: تعطيل كلي وتعطيل جزئي ، فأما الكلي فوقع فيه الجهمية الذين أنكروا جميع صفات الله ، وغلاتهم يعطلون الأسماء أيضا.

وأما الجزئي فهو كتعطيل الأشاعرة ، الذين أنكروا بعض الصفات دون بعض.

وأول من عُرف بالتعطيل في هذه الأمة هو الجعد بن درهم.

انظر «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» ، الباب الثالث: في طريقة أهل السنة في أسماء الله وصفاته ، للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله.

[3] أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

[4] سورة الصافات: ٨٦ – ٨٧ .

[5] كلمة (عبده) ليست في نسخة عزير ، وهي مثبتة في نسخة علي.

أو يظن أن للمخلوق عليه حقا ، فهو يُقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يَتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يَعِزُّ عليهم ولا يُمْكِنُهم مخالفته.

وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمة ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به ، فينقُّص ويضعُف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرفِ أكثرِه أو بعضِه إلى من عبَده من دونه.

فالشرك ملزومٌ لتنقص الرب سبحانه ، **والتنقص لازم له ضرورةً** ، شاء المشرك أم أبى ، ولهذا اقتضى حمدُه سبحانه وكمالُ ربوبيته ألَّا يغفرَه ، وأن يخلِّد صاحبه في العذاب الأليم ، ويجعلَه أشقى البرية ، فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه وإن زعم أنه معظِّمٌ له بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو متنقص للرسول وإن زعم أنه معظمٌ له بتلك البدعة ، فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب ، ويزعم أنها هي السنة إن كان جاهلا مقلدا ، وإن كان مستبصرا في بدعته فهو مشاقٌّ لله ورسوله ، فالمتنقصون المنقوصون عند الله ورسوله وأوليائه هم أهل الشرك والبدعة ، ولاسيما من بَنى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد اليقين ولا تغني من اليقين والعلم شيئا ، فيا لله للمسلمين ، أيُّ شيء فات هذا من التنقص[1] ؟!

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى خشيةَ ما يَتوهمه من التشبيه والتجسيم لله فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال.

والمقصود أن هاتين الطائفتين[2] هم أهل التنقص في الحقيقة ، بل هم أعظم الناس تنقصا ، لبَّس عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال ، ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى ، قال تعالى ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[3] ، فالإثم والبغي قرينان والشرك والبدعة قرينان.

---

[1] أي: ما أعظم النقص الذي حصل لأهل الشرك والبدعة من جرَّاء تنقصهم لله ولرسوله.

[2] أي المشركين والمعطلة.

[3] سورة الأعراف: ٣٣ .

{تنبيه: الذنوب والمعاصي لا تستلزم تنقُّص جانب الربوبية ، بخلاف الشرك في العبادة ، فإنه يستلزم ذلك}[1]

فصل ، وأما نجاسة الذنوب والمعاصي فإنها بوجه آخر ؛ فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية ولا سوء الظن بالله عز وجل ، ولهذا لم يُرتِّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك ، وهكذا استقرت الشريعة على أنه يُعفى عن النجاسات المخففة –كالنجاسة في محل الاستجمار ، وأسفلِ الخُفِّ والحذاء ، وبول الصبي الرضيع ، وغير ذلك – ما لا يُعفى عن المغلَّظة ، وكذلك يُعفى عن الصغائر ما لا يُعفى عن الكبائر ، **ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشُوبوه بالشرك مالا يُعفى لمن ليس كذلك** ، فلو لقي الموحد الذي لم يُشرك بالله شيئا البتة ربَّه بقُرابِ[2] الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة[3] ، ولا يحصل هذا لمن نقصَ توحيدَه وشابَهُ[4] بالشرك ، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبُه شرك لا يبقى معه ذنب ، فإنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحْدَهُ ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قُراب الأرض ، فالنجاسة عارضة ، والدافع لها قَوِيٌّ ، فلا تثبت معه ، ولكن نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرهما من النجاسات من جهة أنها تُفسد القلب وتُضعف توحيده جدا ، ولهذا كان[5] أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركا ، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر ، وكلما كان أعظم إخلاصا كان منها أبعد ، كما قال تعالى عن يوسف الصديق ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلَصين﴾[6] .

---

[1] ص ١٠٥– ١٠٦ .

[2] قُراب أي ما يقارب ملأه. انظر «لسان العرب».

[3] دليل ذلك ما رواه مسلم (٢٦٨٧) وأحمد (١٥٣/٥ ، ١٦٩) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل: ... ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة.

[4] شابه أي خلطه ومزجه.

[5] كلمة (كان) ليست في نسخة عزير ، وهي مثبتة في نسخة علي.

[6] سورة يوسف: ٢٤ ، وقراءة المخلِصين – بكسر اللام – أقرب إلى مراد المؤلف ، وهي قراءة ابن كثير وابن عمرو وابن عامر ، ذكره الشيخ علي حسن في حاشيته على «الإغاثة» ، ص ١٣٣ .

{الوجه الثامن: إعراض القرون الثلاثة الأولى المفضلة عن دعاء الموتى أو الدعاء عندهم}[1]

ومن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعا وعملا صالحا ويُصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ ، ثم يُرزقَه الخُلوف[2] الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون.

فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعا وعشرين سنة حتى توفاه الله ، وهذه سنة خلفائه الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، هل يمكن بشرًا على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقلٍ صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسَّحوا بها ، فضلا أن يُصلُّوا عندها ، أو يسألوا الله بأصحابها ، أو يسألوهم حوائجهم؟ فليوقفونا على أثر واحد أو حرف واحد في ذلك.

بلى ، يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف التي خَلَفَت بعدهم بكثير من ذلك ، وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر ، حتى لقد وُجد في ذلك عدة مصنفات[3] ليس فيها عن رسول الله ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرفٌ واحد من ذلك[4] ، بلى ، فيها من خلاف ذلك كثير[5].

كثير[5].

{فصلٌ في ذكر أمثلة على بُعد السلف عن تعظيم القبور}[6]

وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يحاط بها ، وقد ذكرنا إنكار عمر رضي الله عنه على أنس رضي الله عنه صلاته عند القبر وقوله له: القبر ، القبر.[7]

---

[1] ص ٣٦٧- ٣٦٨ .

[2] الخُلوف هم من خلفوا غيرهم وأتوا بعدهم ، والمقصود بهم مَن خلف القرون الثلاثة المفضلة الأولى ممن أتى في القرن الرابع وما بعده إلى الآن ، والمقصود في السياق الخُلوف الذين لم يقتفوا أثر السلف رضوان الله عليهم.

[3] أي من كتب الأحاديث النبوية وآثار الصحابة.

[4] أي من تلك البدع والمحدثات.

[5] سيأتي ذكر جملة من الأحاديث الواردة في باب النهي عن الغلو في القبور.

[6] ص ٣٦٨ -٣٨١ .

[7] قصة ذلك الإنكار رواها أنس رضي الله عنه قال: قمت يوما أصلي وبين يدي قبر لا أشعر به ، فناداني عمر: القبر ، القبر ، فظننت أنه يعني القمر ، فقال لي بعض من يليني: إنما يعني القبر ، فتنحيت عنه.

رواه البخاري تعليقا في كتاب الصلاة ، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (٦٢٤/١) ، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧٥٧٤ ، ٧٥٧٥) ، والبيهقي (٤٣٥/٢) واللفظ له؟

وقد ذكر محمد بن إسحاق في «مغازيه»[١] من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار قال: حدثنا أبو العالية قال:

لما فتحنا «تُسْتَر[٢]» وجدنا في بيت مال الهُرمُزان[٣] سريرا عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف له ، ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فدعا له كعبًا[٤] فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأتُه مثل ما أقرأ القرآن ، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟

قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم[٥] وما هو كائنٌ بعدُ.

قلت: فما صنعتم بالرجل.

قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان الليل دفناه ، وسوَّينا القبور كلَّها لنُعمِّيَهُ على الناس لا يَنبُشونه.

فقلت: وما يرجون منه.

قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم أبرزوا السرير ، فيُمطَرون.

فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟

قال: رجل يقال له «دانيال».

فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟

قال: منذ ثلاث مئة سنة.

قلت: ما كان تغير منه شيء؟

قال: لا ، إلا شُعيراتٍ من قَفاه[٦] ، إن لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض[٧] ولا تأكلها السباع.[٨]

---

[١] ص ٦٦ – ٦٧ ، تحقيق سهيل زكار.

[٢] تقدم التعريف بها في مقدمة الكتاب.

[٣] أطلق العرب لقب الهرمزان على الكبير من ملوك العجم. انظر «المعجم الوسيط».

[٤] أي كعب الأحبار.

[٥] لحن الكلام هو معناه وفحواه. انظر «المعجم الوسيط».

[٦] القفا هو مؤخر العنق. انظر «المعجم الوسيط».

[٧] تُبليها الأرض أي تأكلها.

[٨] قال ابن كثير رحمه الله: هذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً منذ ثلثمائة سنة فليس بنبي ، بل هو هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في «البخاري» ، والفترة التي كانت بينهما كانت أربعمائة سنة وقيل ستمائة سنة ، وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قرُبت الظنون أنه دانيال ، لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونا كما تقدم.

وقد رُوي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر.

ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعميةِ قبره لئلا يُفتتن به الناس ، ولم يُبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا[1] عليه بالسيوف ، ولعبدوه من دون الله ، فهم قد اتخذوا من القبور أوثاناً من لا يداني هذا ولا يقاربه ، وأقاموا لها سَدَنَة[2] ، وجعلوها معابد أعظم من المساجد.

فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلةً أو سنةً أو مباحًا لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر علمًا لذلك[3] ، ودعَوا عنده وسَنُّوا ذلك لمن بعدهم ، ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخُلوف التي خَلفت بعدهم.

وكذلك التابعون لهم بإحسان ، راحُوا على هذا السبيل ، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير ، وهم متوافِرون[4] ، فما مِنهم من استغاث عند قبر صاحب[5] ولا دعاه ولا دعا به ولا دعا عنده (ولا استشفى به)[6] ولا استسقى به[7] ولا استنصر به ، ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفَّر الهمم والدواعي على نقله ، بل على نقل ما هو دونه.

وحينئذ فلا يخلو ؛ إما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأربابها أفضل منه في غير تلك البقعة أو لا يكون ، فإن كان أفضل فكيف خفِي علمًا وعملاً على الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم ، وتَظفر به الخلوف علما وعملا؟!

ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه مع حرصهم على كل خير ، لا سيما الدعاء ، فإن المضطر يَتشبَّث بكل سبب وإن كان فيه كراهة ما ، فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ثم لا يقصُدونه ، هذا محالٌ طبعا وشرعا.

وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع.

فيُحتمل على هذا أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد ، والله أعلم. انتهى كلامه رحمه الله من «البداية والنهاية» ، (٢/٤٠) ، ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام.

[1] المجالدة هي المضاربة. انظر «المعجم الوسيط».

[2] سَدنة القبور هم خَدمُها.

[3] أي علمًا لذلك القبر ، ليعلم الناس مكانه.

[4] أي متواجدون بينهم أحياء.

[5] أي صحابي.

[6] ما بين القوسين زيادة في نسخة (علي).

[7] ليست في نسخة (علي) ، وهي مثبتة في نسخة (الفقي).

فتعيَّن القِسم الآخر ، وهو أنه لا فضل للدعاء عندها ، ولا هو مشروع ولا مأذون فيه بقصد الخصوص ، بل تخصيصها بالدعاء عندها ذريعة إلى ما تقدم من المفاسد ، ومثل هذا مما لا يشرعه الله ورسوله البتة ، بل استحباب الدعاء عندها شرعُ عبادةٍ لم يَشرعها الله ولم يُنزِّل بها سلطانا.

وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير ، فرَوى غير واحدٍ عن المعرور بن سُوَيد قال: صليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح ، فقرأ فيها ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ ، و ﴿لإيلاف قريش﴾ ، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب[1] ، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أميرَ المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم يُصلُّون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتَّبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعًا[2] ، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليُصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها.[3]

وكذلك أرسل عمر رضي الله تعالى عنه أيضا ، فقطع الشجرة التي بايع تحتها أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم.[4]

بل قد أنكر رسول الله ﷺ على الصحابة لما سألوه أن يجعل لهم شجرة يُعَلِّقون عليها أسلحتهم ومتاعهم بخصوصها ، فروى البخاري في «صحيحه»[5] عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنين[6] ونحن حديثو عهدٍ بكفر[7] ، وللمشركين سدرة يعكُفون[8] حولها ويَنوطون[9] بها أسلحتهم يقال لها «ذاتُ أنواط» ، فمررنا بسدرةٍ[10] ، فقلنا: يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

---

[1] أي تفرقوا وذهبوا جماعات.

[2] بِيَعا جمع بِيَعة ، وهي معبد اليهود.

[3] رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١١٨/٢) رقم (٢٧٣٤) ، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» ، باب ما جاء في اتباع الأذان ، وصححه ابن تيمية رحمه الله كما في «الرد على البكري» (٤٣٣/٢).

[4] انظر «البدع والنهي عنها» لابن وضاح القرطبي ، باب ما جاء في اتباع الأذان ، وقد جزم ابن تيمية بثبوت الخبر كما في «مجموع الفتاوى» (٣٣/٢٧).

[5] هذا وهم من المؤلف رحمه الله ، فلم يروه البخاري ، بل رواه الترمذي (٢١٨٠) ، والحديث صححه الألباني كما في «صحيح الترمذي».

[6] أي جهة حنين.

[7] أي أسلموا قريبا.

[8] العكوف هو طول المكث ، وقد كان المشركون يقيمون عندها ليتبركون بها ، نسأل الله العافية.

[9] أي يُعلقون عليها.

[10] أي سدرة أخرى.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل ﴿اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾[1] ، لتركبُن سَنَنَ[2] من كان قبلكم.

فإذا كان اتخاذُ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذَ إلٰهٍ مع الله تعالى ، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها ، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاءِ به ودعائِه والدعاءِ عنده؟

فأيُّ نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون؟

قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك: فانظروا رحمكم الله ، أينما وجدتم سدرةً أو شجرةً يقصدها الناس ، ويُعظمون من شأنها ويرجون البُرء والشفاء من قِبَلِها ، وينوطون[3] بها المسامير والخِرَق ؛ فهي ذات أنواط فاقطعوها.[4]

{فصلٌ في بيان مخالفة عباد القبور لما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته}[5]

ومن جمع بين سنةِ رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابُه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ؛ رأى أحدهما مضادا للآخَر ، مناقضا له ، بحيث لا يجتمعان أبدا.

فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يُصلون عندها.

ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد ، مضاهاة لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف[6] على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تُتخذ عيدا ، وهؤلاء يتخذونها أعيادا ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهَيَّاج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟

أن لا أدع تمثالا إلا طمستُه ، ولا قبرا مُشرفا[7] إلا سويتُه.[8]

---

[1] سورة الأعراف: ١٣٨ .

[2] السَّنن جمع سنة وهي الطريقة ، سواء كانت طريقة شرعية أو بدعية أو شركية.

[3] في نسخة الشيخ علي: ويضربون بها.

[4] قاله الإمام محمد بن الوليد الطرطوشي المالكي رحمه الله المتوفى سنة (٥٣٠ هـ) في كتاب «الحوادث والبدع» ، ص ٣٨-٣٩ ، وقد ضبطت النص من الأصل.

[5] ص ٣٥٣ - ٣٥٧ .

[6] جمع وقف ، وهو ما حُبس أصله وسُبِّلت منفعته ، كالمباني التي تؤجر ، ويجعل ريعها في مصارف خيرية معينة.

[7] أي مرتفعا.

[8] (٩٦٩).

وفي «صحيحه» أيضا عن ثُمامة بن شُفَي قال: كنا مع فُضالة بن عبيد بأرض الروم بـ «رَودس»[١] ، فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوِّي ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.[٢]

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هٰذين الحديثين ، ويرفعونها عن[٣] الأرض كالبيت ، ويَعقِدون عليها القباب[٤].

ونهى عن تجصيص[٥] القبر والبناء عليه ، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر قال: نهى رسول رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر ، وأن يُقعد عليه ، وأن يُبنى عليه.[٦]

ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود والترمذي[٧] في «سننهما» عن جابر رضي الله عنه ، أن أن رسول الله ﷺ نهى أن تُجصَّص القبور ، وأن يُكتب عليها.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.[٨]

وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيرَه.

ونهى أن يُزاد عليها غير ترابها ، كما روى أبو داود من حديث جابر أيضا أن رسول الله ﷺ نهى أن يُجصص القبر ، أو يُكتب عليه ، أو يُزاد عليه.[٩]

وهؤلاء يزيدون عليه – سوى التراب –: الآجُر والأحجار والجِص.

ونهى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يُبنى القبر بآجُر ، وأوصى أن لا يُفعلَ ذلك بقبره.

وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبري آجُرا.

وقال إبراهيم النَّخَعي: كانوا يكرهون الآجُر على قبورهم.[١٠]

---

[١] «رَوْدَس» جزيرة قبالة الإسكندرية في وسط بحر الشام ، فتحها المسلمون سنة ثلاث وخمسين. انظر «معجم البلدان» مادة «أفرنجة».

[٢] (٩٦٨).

[٣] في نسخة عزير (من) ، والمثبت من نسخة (علي).

[٤] يعقدون على القبور القباب أي يلصقون بعض حجارتها لبعض لتتماسك. انظر «المعجم الوسيط».

[٥] التجصيص هو الطلاء بالجص ، وقد تقدم تعريفه.

[٦] (٩٧٠).

[٧] لم يُذكر الترمذي في نسخة عزير ، والمثبت من نسخة علي.

[٨] رقم (١٠٦٨).

[٩] (٣٢٢٥ ، ٣٢٢٦) ، ورواه مسلم (٩٧٠) دون فقرة الكتابة والزيادة.

[١٠] رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١٧٦٨).

تنبيه: الكراهة عند المتقدمين تعني التحريم ، كما هي طريقة القرآن في قوله تعالى ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ وغيرها من الآيات ، وأما المتأخرين فاصطلحوا على أن الأمر المكروه هو ما يثاب عليه تاركه ولا يأثم عليه فاعله.

وأوصى أبو هريرة رضي الله عنه حين حضرته الوفاة: أن لا تضربوا عليَّ فُسطاطا.[1]
وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فُسطاط.[2]
والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور والمتخذينها أعيادا ، الموقدين عليها السُّرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب ، مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ ، محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذِها مساجد وإيقاد السرج عليها ، وهو من الكبائر ، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه ، قال أبو محمد المقدسي[3]: (ولو أُبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلعن من فَعله[4] ، ولأن فيه تضييعا للمال في غير فائدة ، وإفراطا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام.
قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر[5] ، ولأن النبي ﷺ قال: (لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، يحذر ما صنعوا[6]. متفق عليه.
ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ، وقد رُوِينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات ، باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها).[7] انتهى.

انظر تقرير أن الكراهة عند السلف تعني التحريم في: «إعلام الموقعين» للإمام ابن القيم (٥٢/١) ، (فصل: تحريم القول على الله بغير علم – قد يطلق لفظ الكراهة على التحريم) ، و «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٢٤١/٣٢) ، و «المذكرة في أصول الفقه» للشنقيطي ، ص ٢٢ ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة.
وبعض أهل العلم يعرفون المكروه بأنه ما تَرْكُهُ خيرٌ من فعله ، أو ما نُهي عنه نهيا غير جازم.
انظر «شرح الورقات» ، ص ٣٩ ، للشيخ د. سعد بن ناصر الشثري حفظه الله ، الناشر: كنوز أشبيليا – الرياض.

[1] رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١٧٤٧) ، ورواه أحمد (٢٩٢/٢) ، وقال محققو «المسند» (٢٩٣/١٣): صحيح لغيره ، ونصه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال حين حضره الموت: لا تضربوا علي فسطاطا ، ولا تتبعوني بمجمر ، وأسرعوا بي ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا وضع الرجل الصالح على سريره قال: قدموني قدموني ، وإذا وضع الرجل السوء على سريره قال: يا ويله ، أين تذهبون بي.

[2] ذكره عنه ابن قدامة في «المغني» (٤٣٩/٣) ، كتاب الجنائز ، فصل: ويكره البناء على القبر.

[3] هو ابن قدامة ، الفقيه الحنبلي المعروف ، صاحب كتاب «المغني» ، الذي يعتبر موسوعة في فقه الحنابلة.

[4] تقدم أن لفظة لعن المتخذي السرج على القبور ضعيفة ، ولكن هذا لا يخرجه من حيز التحريم.

[5] أي حديث: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج. رواه الترمذي (٣٢٠) ، والنسائي (٢٠٤٢) ، وأبو داود (٣٢٣٦) ، وأحمد (٢٢٩/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
والحديث صحيح كما قرره الشيخ الألباني رحمه الله في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (٢٢٥ ، ٥٢٥) إلا لفظة (السرج) فذكر أنها زيادة ضعيفة.

[6] تقدم بيان أن هذه اللفظة الأخيرة من كلام عائشة.

[7] «المغني» (٤٤٠/٣-٤٤١) ، كتاب الجنائز.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلالِ المشركين إلى أن شرَّعوا للقبور حجا ووضعوا له مناسك ، حتى صَنَّف بعض غلاتهم في ذلك كتابا وسماه «مناسك حجِّ المشاهد» ، مضاهاةً[1] منه بالقبور للبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقةٌ لدين الإسلام ودخولٌ في دين عُباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرَعه رسول الله ﷺ وقصَدَه من النهي عما تقدم ذِكره في القبور ، وبين ما شرَعه هؤلاء وقصدوه.

{إبطال قول من قال إن النهي عن الصلاة في القبور إنما هو لأجل نجاستها}[2]

وفي هذا إبطالُ قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة ، فهذا أبعدُ شيء عن مقاصد الرسول ﷺ ، وهو باطل من عدة أوجه:

منها ، أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة[3] ، كما يقوله المعللون بالنجاسة.

ومنها ، أنه ﷺ لَعَنَ اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ، ومعلوم قطعا أن هذا ليس لأجل النجاسة ، فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء ، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع ، ليس للنجاسة عليها طريقٌ البتة ، فإن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجسادهم[4] ، فهم في قبورهم طَرِيُّون.

ومنها ، أنه نهى عن الصلاة إليها.

ومنها ، أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرةَ والحمام ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذِكرُ الحُشوشِ[5] والمجازرِ[6] ونحوها أولى من ذكر القبور.

ومنها ، أن موضع مسجدِه ﷺ كان مقبرة للمشركين ، فنبش قبورهم وسوَّاها واتخذه مسجدا ، **ولم يَنقل ذلك التراب** ، بل سوَّى الأرض ومهَّدها وصلى فيه ، كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة ، فنزل بأعلى المدينة في حيٍّ يقال لهم بنو

---

[1] معنى مضاهاة أي مشابهة. انظر «المعجم الوسيط».

[2] ص ٣٣٩ – ٣٤٣ .

[3] أي منبوشة لإخراج ما فيها من نجاسات ، ومقصود الشيخ أن التحريم يعُمُّها نوعي المقابر المذكورين.

[4] ودليل ذلك حديث أوس بن أبي أوس رضي الله عنه ، والشاهد منه قوله ﷺ : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. الأنبياء. رواه أبو داود (١٠٤٧) ، والنسائي (١٣٧٣) ، وابن ماجه (١٠٨٥) ، وأحمد (٨/٤) ، وصححه الألباني.

[5] الحُشوش هي أماكن قضاء الحاجة.

[6] المجازر جمع مجزرة ، وهي أماكن الذبح.

عمرو بن عوف ، فأقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأِ بني النجار ، فجاءوا متقلدين السيوف ، وكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته ، وأبو بكر دونه[1] ، وملأُ بني النجار حوله ، حتى ألقى بفناء[2] أبي أيوب ، وكان يُحب أن يُصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم ، وإنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال: يا بني النجار ، ثامنوني[3] بحائطكم هذا.

قالوا: لا والله ، ما نطلب ثمنه إلا إلى الله.

فكان فيه ما أقول لكم[4] ، قبور المشركين وفيه خِربٌ[5] وفيه نخل ، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنُبِشت ، ثم بالخرِبِ فسُوِّيت ، وبالنخل فقُطع ، فَصَفوا النخل قِبْلةَ المسجد ، وجعلوا عِضادتيه[6] الحجارة ، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجِزون[7] ، وذكر الحديث.[8]

ومنها ، أن فتنةَ الشركِ بالصلاة في القبور ومشابهةَ عُبَّاد الأوثان أعظمُ بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر ، فإذا نهى عن ذلك سدا لذريعة التشبه الذي لا تكاد يخطر ببال المصلي ؛ فكيف بهذه الذريعة القريبةِ التي كثيرا ما تدعو صاحبها إلى الشركِ ودعاءِ الموتى واستيجابهم[9] وطلبِ الحوائج الحوائج منهم ، واعتقادِ أن الصلاةَ عند قبورهم أفضل منها في المساجد ، وغيرِ ذلك مما هو محادة ظاهرة لله ورسوله؟

فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة؟!

مما يدل على أن النبي ﷺ قصد منع هذه الأمة من الفتنة بالقبور كما افتُتن بها قوم نوح ومن بعدهم.

ومنها ، أنه لعن المتَّخذين عليها المساجد ، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يُتخذ عليها المسجدَ مع تطييبنها بطين طاهر فتزول اللعنة ، وهو باطل قطعا.

---

[1] أي راكب خلفه.

[2] أي ألقى رحله ، والفناء الناحية المتسعة أمام الدار. انظر «فتح الباري».

[3] أي قرروا ثمنه لأشتريه منكم.

[4] الكلام لأنس كما تقدم.

[5] الخرب جمع خَرِبة ، وهي موضع الخراب. انظر «المعجم الوسيط».

[6] عضادتي الباب هي قوائمه التي يلتف حولها.

[7] رَجز أي أنشد أرجوزة. انظر «المعجم الوسيط».

[8] رواه البخاري (٤٢٨) ، ومسلم (٥٢٤).

[9] أي طلب إجابة دعائهم.

ومنها ، أنه قَرَنَ في اللعنة بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها[1] ، فهما في اللعنة قرينان ، وفي ارتكابِ الكبيرة صِنوان[2] ، فإن كل ما لعن عليه رسول الله ﷺ فهو من الكبائر ، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لُعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعْلها نُصُبا يُوفِضُ[3] إليه المشركون كما هو الواقع ، فهكذا اتخاذ المساجد عليها ، ولهذا قرن بينهما ، فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيمٌ لها وتعريض للفتنة بها ، ولهذا حكى الله سبحانه عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾[4].

ومنها ، أنه ﷺ قال: اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.[5]

فذِكرُه ذلك عَقِيب قوله: (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد) تنبيه منه على سبب لحوق اللعن بهم ، وهو توسلهم بذلك إلى أن تَصير أوثانا تُعبد.

وبالجملة ، فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفَهِم عن الرسول ﷺ مقاصده ؛ جزم جزما لا يحتمل النقض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه ؛ صيغة (لا تفعلوا) ، وصيغة (إني أنهاكم) ؛ ليس لأجل النجاسة ، ب**ل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه** ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقَلَّ نصيبه أو عُدِم في تحقيق شهادة أن «لا إله إلا الله» ، فإن هذا وأمثالَه من النبي ﷺ صيانةٌ لحِمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتحريدٌ له وغضبٌ لربه أن يُعدَل[6] به سواه ، فأبى المشركون إلا معصيةٌ لأمره وارتكابا لنهيه ، وغرهم الشيطان

---

[1] تقدم الكلام على أن لفظة السرج الواردة في الحديث ضعيفة ، ولكن هذا لا يخرج اتخاذ السرج عن كونه من كبائر الذنوب ، لاشتراكه مع باقي المظاهر في كونها وسائل لمحرم ، وما كان وسيلة لمحرم فهو محرم.

[2] صنوان مثنى صِنو ، وهو النظير والمثيل. انظر «المعجم الوسيط».

[3] يوفض أي يسرع. انظر «المعجم الوسيط».

[4] سورة الكهف: ٢١ .

[5] رواه مالك في كتاب قصر الصلاة في السفر ، باب جامع الصلاة (١/١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلا ، وقد وصله البزار كما في في «كشف الأستار» (١/٢٢٠) فرواه عن عطاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفي سنده عمر بن صبهان ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٣١): وقد اجتمعوا على ضعفه.

ولكن يشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه أحمد (٢/٢٤٦) واللفظ له ، وأبو يعلى (٦٦٨١) والحميدي في «مسنده» (٢/٤٤٥) ، ونصه: اللهم لا تجعل قبري وثنا ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

والحديث صححه الألباني رحمه الله كما في «تحذير الساجد» ص ١٨ ، وقال محققو «المسند»: إسناده قوي.

وانظر ما قاله الألباني في حاشيته على «إغاثة اللهفان» ، ص ٣٥٥ .

[6] أي يُساوَى به.

بأن هذا تعظيمٌ لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم أشدَّ لها تعظيما وأشدَّ فيهم غلوا ؛ كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد!

ولعمر الله ؛ مِن هذا الباب بعينه دُخِلَ[1] على عُباد يغوث ويعوق ونَسر ، ومنه دُخِل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة ، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم ، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم[2] وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية[3] وسلبِ خصائص الإلٰهية عنهم ، وهذا غايةُ تعظيمهم وطاعتهم.

وأما المشركون فعصوا أمرهم وتنقَّصوهم في صورة التعظيم لهم ، قال الشافعي رحمة الله عليه: أكرهُ أن يعظم مخلوقٌ حتى يُجعلَ قبره مسجدا ، مخافة الفتنةِ عليه وعلى من بعده من الناس.[4]

وممن علل[5] بالشرك ومشابهة اليهود والنصارى[6] ؛ الأثرم في كتاب «ناسخ الحديث ومنسوخه» ، فقال بعد أن ذكر حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: (الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام)[7] ، ، وحديث زيد بن جَبيرة عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة في سبع مواطن[8] ، وذكر منها المقبرة ، قال الأثرم:

إنما كُرِهت الصلاة في المقبرة للتشبه بأهل الكتاب ، لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

{فصلٌ في بيان مكيدة اتخاذ القبور أعيادا}[9]

فصلٌ ، ومن ذلك[10] اتخاذُها عيدا ، والعيد ما يُعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، فأما الزمان فكقولِه ﷺ : يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدُنا أهل الإسلام.

رواه أبو داود وغيره.[11]

---

[1] الداخل هو الشيطان ، أعاذنا الله منه.

[2] أي طريقة الصالحين من الأنبياء وغيرهم.

[3] أي العبودية لله تعالى.

[4] انظر «الأم» للشافعي ،كتاب الجنائز ، باب ما يكون بعد الدفن.

[5] أي وممن علل النهي عن الصلاة إلى القبور بأنه ذريعة للشرك.

[6] أي علل النهي عن الصلاة عند القبور بأنه ذريعة للشرك ومشابهة اليهود والنصارى.

[7] في المطبوع: (جُعلت لي الأرض مسجدا) ، وقد ضبطت الحديث من كتب الحديث.

[8] رواه الترمذي (٣٤٦) وابن ماجه (٧٤٦) ، وهو ضعيف كما في «الإرواء» (٢٨٧).

[9] ص ٣٤٤ – ٣٥٠ .

[10] أي: ومن ألوان مكائد الشيطان بعباد القبور.

[11] رواه الترمذي (٧٧٣) وأبو داود (٢٤١٩).

وأما المكان فكما روى أبو داود في «سننه» أن رجلا قال للرسول ﷺ : إني نذرت أن أنحر إبِلاً بـ «بُوانة»[1].

فقال النبي ﷺ : هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟

قالوا: لا .

قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

قالوا: لا.

قال النبي ﷺ : أوفِ بنذرك.[2]

وكقوله: لا تجعلوا قبري عيدا.[3]

والعيدُ مأخوذ من المعاودة والاعتياد ، فإذا كان اسمًا للمكان فهو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه وانتيابه للعبادة أو لغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدا للحنفاء ومثابة[4] ، كما جعل أيام التعبد فيها عيدا.

وكان للمشركين أعيادٌ زمانية ومكانية ، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوَّض الحنفاء منها عيدَ الفطر وعيد النحر وأيام منى ، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر.

فاتخاذ القبور عيدا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام ، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ في سُيِّد القبور[5] مُنَبِّها به على غيره ، فقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله ابن نافع: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال

---

[1] بوانة ؛ موضع في أسفل مكة ، قاله البغوي ، وقال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع.

نقلا من «فتح المجيد» ، باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

[2] رواه أبو داود (٣٣١٣).

[3] رواه أبو داود (٢٠٤٢).

[4] قال ابن كثير رحمه الله بعد أن استعرض أقوال جمع من المفسرين في معنى قوله ﴿مثابة﴾ الواردة في قوله تعالى ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾:

مضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت ، وما جعله موصوفا به شرعا وقدرا من كونه مثابة للناس ، أي جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضي منه وطرا ولو ترددت إليه كل عام ، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ إلى أن قال ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾.

[5] أي قبره ﷺ .

رسول الله ﷺ : لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم.[1]

صلى الله عليه وسلم.[2]

وهذا إسناد حسن[3] ، رُواته كلهم ثقات مشاهير.

وقال أبو يعلى المَوصلي في «مسنده»: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا جعفر بن إبراهيم من ولدِ ذي الجناحين ، حدثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال: ألا أحدثُكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ ؟

قال: لا تتخذوا قبري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، فإن تسليمكم يبلغُني أينما كنتم.[4]

رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في «مختارته».[5]

وقال سعيد بن منصور في «السنن»: حدثنا حِبان بن علي ، حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ : لا تتخذوا قبري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم ، فإن صلاتُكم تبلغني.

وقال سعيد[6]: حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرنا سُهيل بن أبي سُهيل قال: رآني الحسن بن الحسن الحسن ابن علي بن أبي طالب عند القبر ، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال: هَلمَّ إلى العشاء.

فقلت: لا أريده.

فقال: مالي رأيتك عند القبر؟

فقلت: سلمت على النبي ﷺ .

---

[1] رقم (٢٠٤٢).

[2] هذه الكلمة من المؤلف استجابة لأمر النبي ﷺ بالصلاة عليه كما في الحديث المتقدم.

[3] قال الألباني في تعليقه على كتاب «إغاثة اللهفان» ص ٣٥٩ : (وهو كذلك أو أعلى) ، ثم ذكر شواهد لهذا الحديث.

[4] رواه أبو يعلى في «مسنده» ، (١/٣٦١) رقم (٤٦٩) ، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» (٢٠) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٧٥٤١) ، وعنه الحافظ الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٤٢٨) ، وقال الألباني في تحقيقه عليه: حديث صحيح بطرقه وشواهده ، وقد خرجتها في «تحذير الساجد».

[5] رواه من طريق أبي يعلى المتقدم.

[6] أي سعيد بن منصور في «سننه».

فقال: إذا دخلت المسجد فسلِّم[1] ، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا بيتي عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم).

ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.[2]

فهٰذان المرسلان من هٰذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث ، لاسيما وقد احتَج به[3] من أرسله[4] ، وذلك يقتضي ثبوتَه عنده ، هذا لو لم يكن رُوي من وجوهٍ مسندةٍ غير هٰذين ، فكيف وقد تقدم مُسندا؟[5]

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: (ووجه الدلالة أن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى عن اتخاذه عيدا ، فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان.

ثم إنه قرن ذلك بقوله (ولا تتخذوا بيوتكم قبورا) ، أي: لا تُعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرّي النافلة في البيوت ونهى عن تحري العبادة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباهِهم ، ثم إنه عقَّبَ النهي عن اتخاذه عيدا بقوله: (وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) ، يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدِكم ، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيدا).[6]

---

[1] يقصد السلام المشروع على النبي ﷺ عند الدخول إلى المسجد ، كما علمنا رسول الله ﷺ ذلك في قوله: إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ، ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك ... الحديث.

رواه أبو داود (٤٦٥) والترمذي (٤٦٥) وابن ماجه (٧٧٢) عن أبي حميد – أو أبي أسيد – الأنصاري رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

وفي الباب عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، رواه ابن ماجه (٧٧١) ، وعن أبي هريرة ، رواه ابن ماجه (٧٧٣) وكلاهما صححهما الألباني.

[2] رواه سعيد بن منصور في «سننه» واللفظ له ، كما نقله ابن تيمية رحمه الله في «الاقتضاء» (٣٠٢/١) بإسناده ، وليس هو في القسم المطبوع منه ، وقال الألباني رحمه الله: (إسناده قوي) ، انظر «أحكام الجنائز» ، ص ٢٨٠ .

وقوله: (ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء) من كلام الحسن رضي الله عنه.

ورواه إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ » (٣٠) ، وصححه الألباني في تحقيقه له.

ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٧٧/٣) ، وكذا ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥٢/٢) مقتصرا على المرفوع منه فقط.

[3] كلمة (به) ليست في نسخة (عزير) وهي في نسخة (علي).

[4] وهما الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب و علي بن الحسين فهذا علي بن الحسين ، زين العابدين ، وهو من أجل التابعين علما ودينا ، حتى قال الزهري: ما رأيت هاشميا مثله.

[5] أي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والشيخ نقل هذه العبارة من شيخه من كتاب «الاقتضاء» (٦٦٢/٢).

[6] «اقتضاء الصراط المستقيم» (٦٦٢/٢-٦٦٣) باختصار يسير.

وقد حرَّف هذه الأحاديث بعضُ من أخذ شَبهًا من النصارى بالشرك ، وشَبهًا من اليهود بالتحريف ، فقال: (هذا أمرٌ بملازمة قبره والعكوفِ عنده واعتيادِ قصده وانتيابه ، ونهيٌ أن يُجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين ، فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحولِ إلى الحول ، واقصِدوه كل ساعة وكل وقت)!

وهذا مراغمة ومحادة لله ، ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ ، وقلبٌ للحقائق ، ونسبة الرسول ﷺ إلى التدليس والتلبيس بعد التناقض ، فقاتل الله أهل الباطل أنَّى يؤفكون.

ولا ريب أن مَن أمر الناس باعتياد أمرٍ وملازمته وكثرة انتيابه بقوله (لا تجعلوه[1] عيدا) ؛ فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان ، فإن لم يكن هذا تنقيصا فليس للتنقيص حقيقة فينا ، كمن يرمي أنصار الرسول ﷺ وحزبَه بِدَائِه ومُصابِه وينسَلُّ كأنه بريء ، ولا ريب أن ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل إثما وأخف عقوبة من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته.

وهكذا غُيِّرت دِيانات الرسل عليهم السلام ، ولولا أنَّ الله أقام لدينه الأنصارَ والأعوان الذابِّين عنه لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله.

ولو أراد رسولُ الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلال لم ينهَ عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ويلعنْ فاعل ذلك ، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يُعبدُ الله فيها فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها ، وأن يُعتاد قصدها وانتيابها ، ولا تُجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول؟

وكيف يسألُ ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد؟

وكيف يقول أعلم الخلقِ بذلك[2]: ولولا ذلك لأُبرز قبره ، ولكن خُشِي أن يُتخذ مسجدا؟

وكيف يقول: لا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم؟

وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُّلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟

وهذا أفضل التابعين من أهل بيته – علي بن الحسين رضي الله عنهما – نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاءَ عند قبره ﷺ واستدل بالحديث ، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رضي الله عنه ، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضُّلال.

وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن – شيخ أهل بيته – كرِه أن يَقصِد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد ، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدا.

---

[1] في نسخة (عزير): (لا تجعلوا عيدا) ، والمثبت من نسخة (علي).

[2] أي عائشة رضي الله عنها.

قال شيخنا[1]: (فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت ، الذين لهم من رسول الله ﷺ قُـرْبُ النسب وقُربُ الدار ، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم[2] ، فكانوا له أضبط).[3]

{فصلٌ في بيان مفاسد اتخاذ القبور أعيادا}[4]

فصـــــلٌ ، ثم إن في اتخـــاذ القبـــور أعيـــادا مـــن المفاســـد العظيمـــة الـــتي لا يعلمها إلا الله ما يَغضب لأجله كلُّ من في قلبه وقارٌ لله وغَيرةٌ على التوحيد ، وتهجين وتقبيح للشرك ، ولكن:

..... ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

فمن مفاسد اتخاذِها أعيادا: الصلاةُ إليها ، والطوافُ بها ، وتقبيلُها ، واستلامُها ، وتعفيرُ الخدود على ترابها ، وعبادةُ أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالُهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات ، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا وقد نزلوا عن الأكوار[5] والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبَّلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى يُسمع لهم النشيج[6] ، ورأوا أنهم قد أرْبَوْا[7] في الرِّبحِ على الحجيج ، فاستغاثَوا بمن لا يبدي ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجرَ من صلى إلى القبلتين[8] ، فتراهم حول القبر رُكعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا ، وقد ملأوا أكُفَّهم خيبة وخسرانا ، فلِغير الله ، بل للشيطان ، ما يُراق هناك من العبرات ، ويَرتفع من الأصوات ، ويُطلب من الميت من الحاجات ، ويُسأل من تفريج الكربات وإغناء ذوي

---

[1] أي ابن تيمية رحمه الله.

[2] لأن بعض الناس غلوا فيهم بعد وفاة النبي ﷺ ، وقد حصل هذا من الرافضة المسمَّون بالشيعة.

[3] «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٦٥).

[4] ص ٣٥٠ – ٣٥٣ .

[5] مفردها كُور وهو الرَّحِل.

[6] النشيج هو صوت البكاء في الصدر.

[7] أي زادوا ، من الربا وهو الزيادة.

[8] أي بيت المقدس والكعبة ، ومن المعلوم أن المسلمين كانوا يصلون إلى جهة بيت المقدس ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة إلى جهة الكعبة في قوله ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

الفاقات ومعافاة أولي العاهات والبَلِيَّات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين ، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام ، أرأيتَ الحجر الأسود وما يَفعل به وَفد البيت الحرام؟

ثم عفَّروا[1] لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم الله أنها لم تُعفَّر كذلك بين يديه في السجود ، ثم كمَّلوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق[2] ، واستمتعوا بخَلاقهم[3] من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خَلاق ، وقرَّبوا لذلك الوثن القرابين ، وكانت صلاتهم ونسُكهم وقرباهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتَهم يهنئ بعضهم بعضا ويقول: (أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا وحظا) ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلِّفين أن يبيع أحدهم ثواب حَجةِ القبر بحجةِ المتخلِّف إلى البيت الحرام ، فيقول: (لا ، ولو بحجِّك كلَّ عام).

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم[4] ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ، إذ هي فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال ، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم.

وكلُّ من شمَّ أدنى رائحةٍ من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحذور ، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نَهى عنه وما يؤول إليه ، وأحكم في نهيه عنه وتوعُّده عليه ، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته ، والشرَّ والضلالَ في معصيته ومخالفته.

ورأيت لأبي الوفاء بن عقيل[5] في ذلك فصلا حسنا ، فذكرتُه بلفظه ، قال:

(لما صَعُبت التكاليف على الجُهال والطَّغام[6] ؛ عدَلوا[7] عن أوضاع الشرع[8] إلى تعظيم أوضاعٍ[9] وضعوها لأنفسهم فسَهُلت عليهم ، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم.

---

[1] التعفير هو التمريغ ، والمعنى كما سيتضح: هو تمريغ الوجوه على تلك القبور.

[2] أي الحلق ، الذي هو إزالة شعر الرأس.

[3] الخَلاق هو الحظ والنصيب.

[4] أي لم نتجاوز الحدود الشرعية ، بل أخبرنا بالواقع.

[5] هو الإمام العلامة البحر ، شيخ الحنابلة ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ٤٣١ هـ ، له كتاب «الفنون» في أربعمائة مجلد ، اشتغل اشتغل بعلم الكلام فوقع في تأويل بعض الصفات ، ثم أشهد على نفسه أنه تاب ، ثم صنف في الرد على مؤولة الصفات ، وله كلام في كتابه «الفنون» في ذم من خرج عن الشريعة من أهل الكلام والتصوف ، نقله ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٦١/٨ – ٦٨).

توفي رحمه الله سنة ٥١٣ هـ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٤٤٣/١٩).

[6] الطغام هم أوغاد الناس وأراذلهم.

[7] العدول – بضم العين – هو الميل عن الطريق السوي والحياد عنه. انظر «المعجم الوسيط».

[8] أوضاع الشرع هي تعاليمه ، أي ما شرعه الله من التعاليم السمحة.

[9] الأقرب أن مقصوده بقوله «الأوضاع» أي الأفعال.

قال: وهم عندي كفارٌ بهذه الأوضاع ، مثل تعظيمِ القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع ، من إيقادِ النيران[1] وتقبيلِها وتخليقِها[2] ، وخطابِ الموتى بالحوائج ، وكتبِ الرِّقاع[3] فيها: (يا مولاي ، افعل بي بي كذا وكذا) ، وأخذِ تربتها تبركا ، وإفاضةِ الطيب على القبور ، وشدِّ الرحال إليها ، وإلقاءِ الخِرقِ على الشجر اقتداءً بمن عبد اللات والعُزَّى ، والويل عندهم لمن لم يُقبِّل «مشهد الكف» ، ولم يتمسح بآجُرَّةِ[4] «مسجد الملموسة» يوم الأربعاء ، ولم يقُلْ الحمَّالون على جنازته: (الصديق أبو بكر ، أو محمد وعلي) ، أو لم يعقِد على قبر أبيه أزَجا[5] بالجِصِّ[6] والآجُر ، ولم يخرِق ثيابه إلى الذيل ، ولم يُرِق ماء الورد على القبر). انتهى.

{فصلٌ في بيان مجمل مفاسد تعظيم القبور}[7]

ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره.

فمنها تعظيمها المُوقع في الافتتان بها.

ومنها اتخاذها عيدا.

ومنها السفر إليها.

ومنها مشابهة عِبادة الأصنام بما يُفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسِدانتها[8] ، وعُبَّادها يُرجِّحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سِدانتها أفضلُ من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقيِّمِها ليلةَ يُطفِئُ القنديل المعلق عليها.

ومنها النذر لها ولسدنتها.

ومنها اعتقاد المشركين بها أن بها يُكشف البلاء ، ويُنصر على الأعداء ، ويُستنزل غيث السماء ، وتُفرج الكرب ، وتُقضى الحوائج ، ويُنصر المظلوم ، ويُجار الخائف ، إلى غير ذلك.

---

[1] كإيقاد السرج على القبور ووضع المصابيح عليها ونحو ذلك.

[2] التخليق هو وضع الخلوق عليها ، والخلوق نوع من أنواع الطيب.

[3] الرقاع جمع رقعة – بضم الراء – هي قطعة من الجلد أو الورق تكتب. انظر «المعجم الوسيط».

[4] الآجر هو طبيخ الطين. انظر «لسان العرب».

[5] الأزَج ضرب من الأبنية يبنى طوالا. انظر «لسان العرب».

[6] الجص بكسر الجيم وفتحا طِلاء أبيض ، يستعمل للتزيين ، وهو سبب لتقوية ما طُلِي به ، لأنه إذا يبِس صار صلبا متماسكا ، فإن طلي به تراب القبر مثلا كان ذلك سببا في ثبات التراب وعدم اندثاره ، وليس هذا من مقاصد الشريعة ، فإن المقابر شأنها الاندثار والبلى ، والجص هو الذي يسمى في زماننا بالجبس. انظر «لسان العرب».

[7] ص ٣٥٧-٣٥٩.

[8] السِّدانة هي الخدمة ، وسَدنة القبور هم خَدمُها.

ومنها الدخول في لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السُّرج عليها.

ومنها الشرك الأكبر الذي يُفعل عندها.

ومنها إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم ، فإنهم يؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم ، ويكرهونه غاية الكراهة ، كما أن المسيح يَكرهُ ما يَفعل النصارى عند قبورهم[1] ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم ، ويوم القيامة يتبرؤون منهم ، كما قال تعالى ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا﴾ ، قال الله للمشركين[2] ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾[3] الآية ، وقال تعالى ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾[4] الآية ، وقال تعالى ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾[5].

ومنها ، مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها.

ومنها ، محادة الله ورسوله ، ومناقضة ما شرَعه فيها.

ومنها ، التعب العظيم مع الوزر الكثير والإثم العظيم.

ومنها ، إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها ، تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله[6] ، فإن عُباد القبور يقصدونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه في المساجد ، ولا يحصُل لهم فيها نظيره ولا قريب منه.

ومنها ، أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخَراب المساجد ، ودينُ الله الذي بَعث به رسوله ﷺ بضد ذلك ، ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين ؛ عمروا المشاهد وأخربوا المساجد.

---

[1] أشار الشيخ عزير محقق الكتاب إلى أنه في بعض النسخ (قبره) بدل (قبورهم) ، ولا أظنه صوابا ، لأن النصارى لا يعتقدون أنه مقبور أصلا ، بل يعتقدون أن دُفن تحت التراب ثلاثة أيام بعدما قتله اليهود ، ثم رُفع.

[2] أي في الآية بعدها.

[3] سورة الفرقان: ١٧ – ١٩ .

[4] سورة المائدة: ١١٦ .

[5] سورة سبأ: ٤٠ – ٤١ .

[6] أي المساجد ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحب البلاد إلى الله مساجدها. رواه مسلم (٦٧١).

ومنها ، أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة والإحسان إلى المزور ، بالدعاء له والترحم عليه والاستغفار له وسؤال العافية له ، فيكون الزائر مُحسنا إلى نفسه وإلى الميت ، فقَلَب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشركَ بالميت ودعاءَه والدعاءَ به وسؤالَه حوائجهم واستنزالَ البركات منه ونصرَه لهم على الأعداء ونحو ذلك ، فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت ، ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له.

{فصلٌ في بيان صفة زيارة القبور الشرعية والبدعية}[1]

فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان التي شرعها الله على لسان رسوله ﷺ ، ثم وازِن بينها وبين زيارة أهل الإشراك التي شرعها لهم الشيطان ، واختر لنفسك:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلتي منه ؛ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون ، غدا مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد[2]. رواه مسلم.[3]

وفي «صحيحه» عنها أيضا ، أن جبريل عليه السلام أتاه فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟

قال: قُولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون.[4]

وفي «صحيحه» أيضا عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا:

---

[1] ص ٣٥٩ – ٣٦٥ .

[2] الغرقد نوع من الشجر يشبه العرفج ، وينبت في المدينة النبوية ، وسميت مقبرة بقيع الغرقد بهذا الاسم لغرقد كان فيها ، وعلى هذا فلا يقال عند دخول المقابر الأخرى: اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد ، بل يقال اللهم اغفر لأهل هذه المقبرة ، أو نحو هذا من الدعاء.

[3] (٩٧٤).

[4] رواه مسلم (٩٧٤).

السلام على أهل الديار – وفي لفظ: السلام عليكم أهل الديار – من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية.[1]

وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ : كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ، ولا تقولوا هُجرا[2] . رواه أحمد والنسائي.[3]

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدا للذريعة ، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذِن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هجرا ، فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله ﷺ فإن زيارته غير مأذون فيها ، ومن أعظم الهُجر: الشرك عندها قولا وفعلا.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : زوروا القبور فإنها تُذكِّر الموت.[4]

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تُذكركم الآخرة. رواه الإمام أحمد.[5]

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال: السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، ونحن بالأثر[6] .

رواه أحمد والترمذي وحسنه.[7]

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تُزهد في الدنيا وتذكر الآخرة. رواه ابن ماجه.[8]

---

[1] (٩٧٥).

[2] الهجر هو الفحش من القول ،كالنياحة ونحوها. انظر «المعجم الوسيط».

[3] رواه أحمد (٣٦١/٥) ، واللفظ له ، وقد ضبطت اللفظ من «المسند» ، والنسائي (٢٠٣٢) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ورواه مسلم (٩٧٧) ، وأبو داود (٣٢٣٥) ، والترمذي (١٠٥٤) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٥٦٩/٣).

[4] (٩٧٦) ، (١٠٦).

[5] (١٤٥/١) ، وقال محققو «المسند» (٣٩٨/٢): صحيح لغيره.

[6] أي نحن في أثركم ، لاحقون بكم.

[7] (٣٦٧/١) ، والترمذي (١٠٥٣) ، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» دون فقرة الإقبال بالوجه ، انظر (ص ٢٤٩ – ٢٥٠).

[8] (١٥٧١) ، وإسناده ضعيف كما قال الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإن فيها عبرة.[1]

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته وعلَّمهم إياها ، هل تجد فيها شيئا مما تعمده أهل الشرك والبدع ، أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟

وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: (لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) ، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ، ونَقَصَ إيمانهم ؛ عُوِّضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرَّد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلَّم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا ، فقال سلمة بن وَردان: رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يُسلم على النبي ﷺ ، ثم يُسند ظهره إلى جدار القبر ثم يُدعو.[2]

ونص على ذلك الأئمة الأربعة ؛ أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر ، فإن الدعاء عبادة.

وفي الترمذي وغيره مرفوعا: (الدعاء هو العبادة)[3].

فجرَّد السلف العبادة لله ، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أَذِن فيه رسول الله ﷺ من السلام على أصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم.

{فصلٌ في بيان الفرق بين المقصود من الزيارة الشرعية والزيارة الشركية}[4]

فصلٌ في الفرق بين زيارة المُوحِّدين[5] للقبور وزيارة المشركين.

أما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء:

---

[1] رواه أحمد (٣/٣٨) ، وحسنه الألباني كما في «الإغاثة» ص ٣٧٣ ، وانظر «أحكام الجنائز» ص ٢٢٨ .

[2] رواه محمد بن الحسن بن زبالة في «أخبار المدينة» بإسناد فيه عمر بن هارون ، وهو متروك الحديث ، وفي الأحاديث والآثار الأخرى الصحيحة غنية عنه إن شاء الله.

يراجع {فصلٌ في بيان أمثلة على بُعد السلف عن تعظيم القبور}.

[3] رواه الترمذي (٢٩٦٩) ، وأبو داود (١٤٧٩) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) ، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٤) ، وغيرهم ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وصححه الألباني.

[4] ص ٣٩٢ – ٤٠٠ .

[5] أي أهل التوحيد في العبادة ، الذين أخلصوا لله الدين وصرفوا العبادات كلها له سبحانه وتعالى.

أحدها ، تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة.[1]

والثاني: الإحسان إلى الميت ، وأن لا يطول عهدُه به فيهجُرُه ويتناساه ، كما إذا ترك زيارة الحيِّ مدة طويلة تناساهُ ، فإذا زار الحيَّ فرح بزيارته وسُرَّ بذلك ، فالميت أولى ، لأنه قد صار في دارٍ قد هَجر أهلَها إخوانُهم وأهلُهم ومعارفُهم ، فإذا زاره وأهدى إليه هدية من دعاء أو صدقة ، أو أهدى قربة ؛ ازداد بذلك سرورُه وفرحه كما يُسر الحيُّ بمن يزوره ويهدي له ، ولهذا شرع النبي ﷺ للزائر أن يدعوَ لأهل القبور بالرحمة والمغفرة وسؤال العافية فقط ، ولم يشرع أن يدعوهم ولا أن يدعو بهم ولا يصلي عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ ، فيحسن إلى نفسه وإلى المزور.[2]

وأما الزيارة الشركية **فأصلها مأخوذ عن عباد الأصنام** ، قالوا: الميت المُعَظم الذي لِروحه قربٌ ومَزية عند الله تعالى لا تزال تأتيه الألطاف من الله ، وتَفيض على روحه الخيرات ، فإذا علَّق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له.

قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ، ويعكُف بهمته عليه ، ويوجه قصده كله وإقباله عليه ، بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره ، وكلما كان جمعُ الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به.

وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما[3] ، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها ، وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العُلوية فاض عليها منها النور.

وبهذا السِّر عُبِدت الكواكب ، واتُّخذت لها الهياكل ، وصُنفت لها الدعوات ، واتخذت الأصنام المجسدة لها ، **وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا ، وتعليق الستور عليها ، وإيقاد السرج عليها ، وبناء المساجد عليها ، وهو الذي قصد رسول الله ﷺ إبطالَه ومحوَه**

---

[1] تقدم تخريجه.

[2] للفائدة ، فقد ذكر الشيخ الألباني جملة من بدع الجنائز في كتابه «أحكام الجنائز» ، فليراجعها من أراد الاستفادة.

[3] وهما من الفلاسفة المنسلخين من شريعة الإسلام ، انظر فصل: (تلاعب الشيطان بالفلاسفة) لابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان».

بالكلية ، وسدَّ الذرائع المفضية إليه ، فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده ، وكان ﷺ في شِـقٍّ وهؤلاء في شِقْ.

وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتَهم تنفعُهم بها وتشفع لهم عند الله ، قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله ، وتوجه بهمته إليه ، وعكَف بقلبه عليه ؛ صار بينه وبينه اتصال يُفيض به عليه منه نصيبٌ مما يحصل له من الله ، وشبَّهوا ذلك بمن يخدُم ذا جاهٍ وحظوةٍ وقُربٍ من السلطان ، فهو شديد التعلق به ، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينالُ ذلك المتعلِّق به بحسب تعلقه به.

فهذا سر عبادة الأصنام ، وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه ولعنِهم ، وأباح دماءهم وأموالهم وسبْيَ ذراريهم ، وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم ، قال تعالى ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾[1].

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السماوات والأرض وهو الله وحده ، فهو الذي يَشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده ، فيأذنُ هو لمن يشاء أن يشفع فيه ، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له ، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمرِه بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه ، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده ، وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم ، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عَدل ولا تنفعها شفاعة﴾[2] ، وقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾[3] ، وقال تعالى ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾[4] ، وقال ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾[5] ، فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه ، بل إذا أراد الله سبحانه رحمةَ عبده أَذِن هو لمن يشفع فيه ، كما قال تعالى ﴿ما من

---

[1] سورة الزمر: ٤٣ – ٤٤ .

[2] سورة البقرة: ١٢٣ . والمقصود بالعدل هنا هو الفداء. انظر «المعجم الوسيط».

[3] سورة البقرة: ٢٥٤ .

[4] سورة الأنعام: ٥١ .

[5] سورة السجدة: ٤ .

شفيع إلا من بعد إذنه﴾[1] ، وقال ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾[2] ، فالشفاعةُ بإذنه ليست شفاعة من دونه ، ولا الشافع شفيع من دونه ، **بل شفيعٌ بإذنه** ، والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور ، فالشفاعة التي أبطلها شفاعة الشريك ، فإنه لا شريك له ، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول: (اشفع في فلان) ، ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد ، الذين جرَّدوا التوحيد وخلَّصوه من تعلُّقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضى الله سبحانه ، قال تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾[3] ، وقال ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولا﴾[4] ، فأخبر أنه لا يحصُلُ يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاه قولَ المشفوع له وإذنَه للشافع فيه.

فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله ، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه ، فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له ، وإذنه للشافع ، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسرُّ ذلك أن الأمر كله لله وحده[5] ، فليس لأحدٍ معه من الأمر شيء ، وأعلى الخلقِ وأفضلِهم وأكرمِهم عنده هم الرسل والملائكة المقرَّبون ، وهم عبيد محض ، لا يسبقونه بالقول ، ولا يتقدمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئا إلا بعد إذنِه لهم وأمرِهم ، ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، فهم مملوكون مربوبون ، أفعالهم مقيَّدة بأمره وإذنه ، فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه – ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفَعوا له عند الله – فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه ، فإن هذا محال ممتنع ، **سَبَبُهُ** قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء ، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج ، **وبهذا القياس الفاسد عُبِدت الأصنام** ، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي.

والفرق بينهما هو الفرق بين الخالق والمخلوق ، والرب والعبد ، والمالك والمملوك ، والغني والفقير ، والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره ، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم ، فإن قيام مصالحِهم بهم ، وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيامُ أمر الملوكِ والكبراءِ بهم ، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتُهم في الناس ، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول

---

[1] سورة يونس: ٣ .

[2] سورة البقرة: ٢٥٥ .

[3] سورة الأنبياء: ٢٨ .

[4] سورة طه: ١٠٩ .

[5] وفي هذا تنبيه لقوله تعالى ﴿مالك يوم الدين﴾ ، فإنه يوم القيامة تنقطع جميع الأملاك ، حتى الكلام ، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، كما قال تعالى ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن وقال صوابا﴾.

شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع ، لأنهم يخافون أن يَرُدُّوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم لهم ويذهبون إلى غيرهم ، فلا يجدون بُدًّا من قَبول شفاعتهم على الكُرهِ والرِّضى.

فأما الغني – الذي غناه من لوازم ذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وكل من في السماوات والأرض عبيد له مقهورون بقهره ، مُصرَّفون بمشيئته ، لو أهلكَهم جميعا لم يَنقص من عِزِّه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلٰهيته مثقال ذرة ، قال تعالى ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾[1] ، وقال سبحانه في سَيِّدةِ آيِ القرآن – آيةِ الكرسي – ﴿له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ، وقال ﴿قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾ ، فأخبر أن كمال[2] ملكه للسماوات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده ، وأن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه ، فإنه ليس بشريك بل مملوك محض ، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض ، ولهذا يُطلِقُ نفيُها تارةً بناءً على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس ، ويقيِّدها تارةً بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه ، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه ، فإنه الذي أَذِن والذي قَبِلَ والذي رضِيَ عن المشفوع ، والذي وفَّقه لفعلِ ما يستحق به الشفاعة وقولِهِ[3].

فمُتخذ الشفيع مشرك ، لا تنفعه شفاعته ولا يُشَفَّع فيه ، ومُتخذُ الربِّ وحده إلٰهه ومعبوده ومحبوبه ومرجُوهُ ومَخوفه ، الذي يتقرب إليه وحده ، ويطلب رضاه ، ويتباعد من سخطه ؛ هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه ، قال تعالى ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ إلى قوله ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ ، وقال تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[4] ، فبيَّن سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون ، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم ، وإنما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

---

[1] سورة المائدة: ١٧ .

[2] في نسخة عزير (حال) ، والمثبت من نسخة علي.

[3] أي وفَّقه للفعل والقول.

[4] سورة يونس: ١٨ .

وسِرُّ الفرق بين الشفاعتين أن شفاعةَ المخلوقِ للمخلوقِ وسؤالَه للمشفوع عنده لا يُفتقر فيها إلى المشفوع عنده ، لا خلقا ولا أمرا ولا إذنا ، بل هو سببٌ محرِّكٌ له من خارج ، كسائر الأسباب التي تُحَرِّك الأسباب ، وهذا السبب المُحرِّك قد يكونُ عند المتحرِّك لأجله ما يوافقه ، كمن شُفِع عنده في أمر يحبه ويرضاه ، وقد يكون عنده ما يخالفه ، كمن يُشفَع إليه في أمر يكرهه ، ثم قد يكون سؤالُه وشفاعتُه أقوى من المُعارِض ، فيقبل شفاعة الشافع ، وقد يكون المُعارِض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع ، فيرُدُّها ولا يقبلها ، وقد يتعارض عنده الأمران ، فيبقى مترددا بين ذلك المُعارِض الذي يوجب الرد ، وبين الشفاعة التي تقتضي القَبول ، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجِّح.

فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه ، يُحرِّكُه به ولو على كُرهٍ منه ، فمنزلة الشفاعة عنده منزلةَ من يأمر غيره أو يُكرِهه على الفعل ، إما بقوة وسلطان ، وإما بما يُرَغِّبه ، فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبةً ينتفع بها ، وإما رهبةً منه تندفع عنه بشفاعته ، وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه ، فإنه ما لم يخلُق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويُحبها منه ويرضى عن الشافع ؛ لم يمكن أن توجد ، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه ولا لرهبته منه ولا لرغبته فيما لديه ، وإنما يشفع عنده مجردَ امتثال لأمره وطاعة له ، فهو مأمورٌ بالشفاعة ، مطيعٌ بامتثال الأمر ، فإنَّ أحدا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى وخلقه ، فالرب تعالى هو الذي يُحرِّك الشفيعَ حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل ، والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه في أكثر أموره ، وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكَه وعبده ، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما ينالَه منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك ، كما أن الشافع محتاج إليه فيما ينالُه منه من رزق أو نصر أو غيره ، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه الله لفَهم هذا الموضع ومعرفتِه تبين له حقيقة التوحيد والشرك ، والفرق بين ما أثبته الله من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

{فصلٌ في ذكر شيء من حقوق الميت على الحي}[1]

وبالجملة ، فالميت قد انقطع عمله[2] ، فهو محتاج إلى من يدعو له ويَشفع له[3] ، ولهذا شُرع في الصلاة عليه من الدعاء له – وجوبا واستحبابا – ما لم يُشرع مثلُه في الدعاء للحي ، قال عوف بن مالك: صلى رسول الله ﷺ على جنازة ، فحفِظت من دعائه وهو يقول: (اللهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأكرم نُزله ، ووسع مُدخله ، واغسله بالماء والثلج والبرد ، ونَقِّهِ من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدَّنس ، وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجه ، وأَدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر – أو من عذاب النار –) ، حتى تمنيت أن أكون أنا الميت لدعاء رسول الله ﷺ على ذلك الميت. رواه مسلم.[4]

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول في صلاته على الجنازة:

اللهم أنت ربُّها ، وأنت خلقتها ، وأنت هديتها للإسلام ، وأنت قبضت روحها ، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها ، جئنا شفعاء ، فاغفر له. رواه الإمام أحمد.[5]

وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء.[6]

وقالت عائشة رضي الله عنها وأنس عن النبي ﷺ : ما من ميت يُصلِّي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شُفِّعوا فيه. رواه مسلم.[7]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفَّعهم الله فيه. رواه مسلم.[8]

---

[1] ص ٣٦٥- ٣٦٧ .

[2] كما في حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم (١٦٣١): إذا مات الإنسان انقطع عمله ... الحديث.

[3] لا أن يُدعا هو وتطلب منه الحاجات ، يستوي في هذا جميع الناس ، بلا تفريق بين نبي أو صحابي أو تابعي أو من قيل إنه ولي أو رجل صالح.

[4] (٩٦٣).

[5] (٢٥٦/٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٥٨) ، وأبو داود (٣٢٠٠) ، وضعفه الألباني.

[6] (٣١٩٩) ، وابن ماجه (١٤٩٧) ، وحسنه الألباني.

[7] (٩٤٧).

[8] (٩٤٨).

فهذا مقصود الصلاة على الميت ، **وهو الدعاء له والاستغفار والشفاعة فيه** ، ومعلوم أنه في قبره أشد حاجة منه على نعشه ، فإنه حينئذ معرض للسؤال وغيره ، وقد كان ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: سَلوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل.[1]

فعُلِم أنه أحوجُ إلى الدعاء له بعد الدفن[2] ، فإذا كنا على جنازته ندعو له – لا ندعو به – ، ونشفع له – لا نستشفع به – ، فبعد الدفن أولى وأحرى.

فبدَّل أهل البدع والشرك قولا غير الذي قيل لهم ، بدلوا الدعاء له بدعائه نفسِهِ ، والشفاعةَ له بالاستشفاع به ، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ – إحسانا إلى الميت وإحسانا إلى الزائر وتذكيرا بالآخرة – سؤالَ الميت ، والإقسامَ به على الله ، وتخصيصَ تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة ، وحضورَ القلبِ عندها وخشوعَه أعظمُ منه في المساجد وأوقات الأسحار.

{فصلٌ في بيان أن النهي عن الغلو في أصحاب القبور ليس فيه غضٌّ من أصحابها}[3]

ومن أعظم كيد الشيطان أنه يَنصب لأهل الشرك قبرا معظما[4] يُعظِّمه الناس ، ثم يجعله وثنا يُعبد من دون الله ، ثم يوحي إلى أوليائه أن من نهى عن عبادته واتخاذه عيدا وجعْلِه وثنا فقد تنقَّصه وهضم حقه ، فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعُقوبته ويُكفرونه ، وذنبُه عند أهل الإشراك أمرُه بما أمر الله به ورسولُه ، ونهيه عما نهى الله عنه ورسوله من جعلِه وثنا وعيدا ، وإيقاد السرج عليه ، وبناء المساجد والقباب عليه ، وتجصيصه وإشادته[5] وتقبيله واستلامه ودعائه ، أو الدعاء به ، أو السفر إليه ، أو الاستغاثة به من دون الله ، مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسولُه من تجريد التوحيد لله وأن لا يُعبد إلا الله.

فإذا نهى الموحدُ عن ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم وقالوا: (قد تنقص أهل الرتب العالية ، وزعم أنهم لا حُرمة لهم ولا قدر) ، وسرى ذلك في نفوس الجهالِ والطَّغامِ[6] وكثيرٍ ممن يُنسب إلى

---

[1] رواه أبو داود (٣٢٢١) ، والحاكم (٣٧٠/١) ، والبيهقي (٥٦/٤) ، وصححه الألباني.

[2] كيف يستقيم في العقل والشرع أن يأتي أحياء إلى موتى فيسألونهم حاجاتهم ، مع كونهم مأمورون بسؤال الله أن يغفر للموتى زلاتهم ويرحمهم؟!

[3] ص ٣٨٤ – ٣٨٥ .

[4] في نسخة عزير (قبر معظم) ، ولا شك أنه خطأ ، والمثبت من نسخة علي.

[5] إشادته أي بناؤه بناء مرتفعا طويلا ، وقيل (مشيد) أي مبني بالجص. انظر تفسير الطبري لقوله تعالى (وقصر مشيد) (سورة الحج: ٤٥).

[6] تقدم بيان أن الطغام هم أوغاد الناس وأراذلهم.

العلم والدين ، حتى عادَوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم ، ووالَوا أهل الشرك وعظَّموهم وزعموا أنهم هم أولياءُ الله وأنصارُ دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك ، فما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، المتبعون له ، الموافقون له ، العارفون بما جاء به ، الداعون إليه ، لا المتشبعون بما لم يُعطَوا ، لابسو ثيابِ الزور ، الذين يصدون الناس عن سنة نبيهم ويبغونهم عوجا[1] ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

فصلٌ ، ولا تحسبْ أيها المُنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم ، صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته ، أن النهيَ عن اتخاذ القبور أوثانا وأعيادا وأنصابا ، والنهيَ عن اتخاذها مساجد ، وبناء المساجد عليها ، وإيقاد السرج عليها ، والسفر إليها ، والنَّذر لها ، واستلامها وتقبيلها وتعفير الجباه في عرصاتها[2] ؛ غضٌّ من أصحابها ولا تنقيص لهم ، كما يحسبه أهل الإشراك والضلال ، بل ذلك من إكرامهم وتعظيمهم واحترامهم ومتابعتهم فيما يحبونه وتَجنُّبِ ما يكرهونه ، فأنت واللهِ وليهم ومحبهم وناصر طريقتِهم وسنتِهم ، وعلى هديهم ومِنهاجهم ، وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم ، وأبعدُهم من هديهم ومتابعتهم ، كالنصارى مع المسيح عليه السلام ، واليهود مع موسى عليه السلام ، والرافضة مع علي رضي الله عنه ، فأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل ، ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[3] ، ﴿والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾[4] ، فاعلم أنَّ القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السُّنن[5] ، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديِه وسنتِه ، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه.

{فصل في بيان صفة التعظيم الشرعي لأصحاب القبور}[6]

وتعظيمُ الأنبياء والصالحين ومحبتُهم إنما هو باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح ، واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم ، دون عبادةِ قبورهم والعكوفِ عليها واتخاذِها أعيادا ، فإن مَن

---

[1] أي يريدون أن يسلكوا بالناس طريقا معوجة.

[2] جمع عرصة ، وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. انظر «القاموس المحيط».

[3] سورة التوبة: ٧١ .

[4] سورة التوبة: ٦٧ .

[5] كما قال التابعي الجليل حسان بن عطية: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة. رواه الدارمي في المقدمة ، باب اتباع السنة (٩٨).

[6] ص ٣٨٥ – ٣٨٧ .

اقتفى آثارَهم كان متسببا إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوتِه الناس إلى اتباعهم ، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر ، فأيُّ تعظيم لهم واحترام في هذا؟

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة التي يكرهها الله ورسوله لإعراضهم عن المشروع أو بعضِه ، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقتها المقصودة منه ، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه ، عارفا بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح ، مهتما بها كل الاهتمام ؛ أغنته عن الشرك ، وكلُّ من قصَّر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك ، ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه ، وتدبَّره وتفهمه ؛ أغناه عن السَّماع الشيطاني[1] الذي يَصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويُنبتُ النفاق في القلب.

وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول ﷺ بكُلِّيته ، وحدَّث نفسه باقتباس الهُدى والعلمِ منه لا من غيره ؛ أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وَساوس النفوس وتخيلاتها ، ومن بَعُدَ عن ذلك فلا بد له أن يتعوَّض عنه بما لا ينفعه.

كما أن من عَمَرَ قلبه بمحبة الله وذكره وخشيته والتوكل عليه والإنابة إليه أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه ، وأغناه أيضا عن عِشق الصور ، وإذا خلا من ذلك صار عبدَ هواه ، أيُّ شيء استحسنه ملَكَهُ واستعبده ، فالمعرض عن التوحيد مشركٌ شاء أم أبى ، والمعرض عن السنة مبتدعٌ ضالٌّ ، شاء أم أبى ، والمُعرض عن محبة الله وذِكره ؛ عَبْدُ الصور ، شاء أم أبى ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا به.

{فصل في بيان أسباب الوقوع في الغلو بالقبور}[2]

فصل ، فإن قيل: فما الذي أوقع عُباد القبور في الافتتان بها مع العلم بأن ساكنيها أمواتٌ لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا؟

قيل: أوقعهم في ذلك أمور:

منها ، الجهلُ بحقيقةِ ما بعث الله به رسولَه ، بل جميعَ الرسل ، من تحقيق التوحيد وقطعِ أسباب الشرك ، فقلَّ نصيبهم جدا من ذلك ، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة ، ولم يكن عندهم من العلم ما يُبطل دعوته ، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل ، وعُصِموا بقدر ما معهم من العلم.

---

[1] وهو سماع الغناء والمعازف.

[2] ص: ٣٨٧ – ٣٩٢ .

ومنها ، أحاديثٌ مكذوبةٌ مُختلقةٌ ، وضعها أشباه عُباد الأصنام من المُقابِرِيَّة[1] على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به ، كحديث: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور)[2] ، وحديث: (لو حسن أحدكم ظنه بحجر نفعه)[3] ، وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام ، وضعها المشركون وراجت على أشباههم من الجهال الضلال ، والله بعث رسوله بقتل من حسَّنَ ظنه بالأحجار ، وجنَّبَ أمته الفتنة بالقبور بكل طريق كما تقدم.

ومنها حكاياتٌ حكيت لهم عن تلك القبور ؛ أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدةٍ فخلُصَ منها ، وفلانٌ دعاه أو دعا به في حاجةٍ فقُضِيت له ، وفلانٌ نزل به ضُرٌّ فاسترجى صاحب ذلك القبر فكُشِف ضُرُّه ، وعند السَّدنة والمُقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره ، **وهم من أكذب**

---

[1] أي عُباد القبور.

[2] الجواب عن هذا الحديث من وجهين: **الأول**: أن هذا الحديث ليس له إسناد ، ولم يرد في أي من كتب الحديث المعتبرة ، وإنما على ألسنة القبوريين فقط ، قال ابن تيمية رحمه الله في كتاب «التوسل والوسيلة» ، ص ٢٩٧ :

(فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة). اهـ.

الثاني: هذا الحديث وما جاء في معناه يخالف أصول الدين ، فإنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن الله أمر المسلم إذا أصابته مصيبة أن يتضرع إلى الله وحده كما قال تعالى ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ ، بينما الحديث المتقدم يفيد التوجه للحجارة ، وهو دعوة صريحة لعبادة الأوثان ، والرجوع إلى ما كانت عليه العرب في سالف الأزمان.

[3] قال ابن تيمية رحمه الله في هذا الحديث في كتابه «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ، ص ٥٢:

(وإنما هذا من قول عباد الأصنام الذين يُحسنون ظنهم بالحجارة ، وقال تعالى لهم ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ... فهؤلاء المشركون كانوا قد أحسنوا ظنهم بالحجارة فكان عاقبتهم أنهم في النار خالدون ، وإنما يحسن العبد ظنه بربه كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله: (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)). اهـ.

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله في كتابه «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» ، ص ١٣٢ :

وحديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه» ، وهو من وضع المشركين ، عباد الأوثان). اهـ.

وقال ابن حجر العسقلاني: (لا أصل له). ذكره عنه الملا علي القاري في «الأسرار الموضوعة» ، برقم ٣٧٦ .

وقال الشيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» ، (٤٥٠): موضوع.

وأورده الشيخ مرعي الكرمي في كتابه «الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة» برقم (١٨٨) ، والفتني في كتابه «تذكرة الموضوعات» ، ص ٢٨ .

ثم إن هذا الحديث المروي بغير إسناد يخالف الحديث الذي رواه مسلم (٢٨٧٧) وغيره عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل.

خلق الله تعالى على الأحياء والأموات ، والنفوسُ مولعةٌ بقضاء حوائجها وإزالة ضروراتها ، وتَسمع بأن قبر فلان ترياقٌ مُجربٌ[١] .

والشيطان له تلطُّف في الدعوة[٢] ، فيدعوهم أولا إلى الدعاء عنده ، فيدعو العبد عنده بِحُرقة وانكسارٍ وذِلة ، فيجيب الله دعوته لِما قام بقلبه لا لأجل القبر ، فإنه لو دعاه كذلك في الحانة[٣] والخمَّارة[٤] والحمَّام والسوق أجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا في إجابة تلك الدعوة[٥] ، والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرا ، وقد قال تعالى ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾[٦] ، وقد قال الخليل ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ ، فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾[٧] .

فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيا عنه ولا محبًّا له ولا راضيا بفعله ، فإنه يجيب البَر والفاجر والمؤمن والكافر.

وكثير من الناس يدعو دعاءً يعتدي فيه ، أو يُشرك في دعائه ، أو يكون مما لا يجوز أن يُسأل ، فيحصل له ذلك أو بعضُه ، فيظن أن عمله صالح مُرضٍ لله ، ويكون بمنزلة من أُملي[٨] له وأُمِدَّ بالمال والبنين ، وهو يظن أن الله يُسارع له في الخيرات[٩] ، وقد قال تعالى ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾[١٠] .

---

[١] قال في «النهاية»: ترياق: ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، وهو مُعرَّب. اهـ.
قلت: ومقولة «قبر فلان ترياق مجرب» عبارة قديمة ، كانت تقال في قبر رجل يقال له ترياق ، زعموا أن الدعاء عنده مجرب استجابته ، ثم صارت تقال في القبور التي توصف بهذا الوصف الباطل.

[٢] أي حيل خفية ودقة في دعوة الناس إلى الغواية.

[٣] الحانة هي دُكَّان الخمار. انظر «المعجم الوسيط».

[٤] الخمارة هي موضع بيت الخمر. انظر «المعجم الوسيط».

[٥] وهذه فائدة أخرى أيضا تكشف سر الإجابة ، فتنبه لحيل شياطين الجن.

[٦] سورة الإسراء: ٢٠ .

[٧] سورة البقرة: ١٢٦ .

[٨] الإملاء من الملء ، وهو الإعطاء الوفير ليمتلئ ما يراد ملؤه ، والمعنى هنا هو ما يعطاه الإنسان من الخير من طول العمر وسعة الرزق. انظر «المعجم الوسيط».

[٩] كما في قوله تعالى ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾.

[١٠] سورة الأنعام: ٤٤ .

فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعي ، وقد يكون دعاء مسألة تُقضى به حاجته ويكون مضرة عليه ، إما أن يُعاقب بما يحصل له ، أو تَنقُص به درجته ، فتُقضى حاجته ويعاقبه على ما جرى عليه من إضاعة حقوقه وارتكاب حدوده.

والمقصود أن الشيطان بلطف كيده يُحسِّن الدعاء عند القبر ، وأنه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار ، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام على الله به ، وهذا أعظمُ من الذي قبله ، فإنَّ شأن الله أعظم من أن يُقسمَ عليه أو يُسألَ بأحد من خلقه ، وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك ، فقال أبو الحسين القُدوري في «شرح كتاب الكرخي»[1] :

الكرخي»[1] :

قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به.[2]

قال: وأكره أن يقول: أسألك بمعقِدِ العز من عرشك.

وأكره أن يقول: بحقِّ فلان ، وبحق أنبيائك ورسلك ، وبحقِّ البيت الحرام.

قال أبو الحسين: أما المسألة بغير الله فمنكرة في قولهم ، لأنه لا حق لغير الله عليه ، وإنما الحق لله على خلقه.[3]

وأما قوله: (بمعقد العز من عرشك) ؛ فكرِهه أبو حنيفة ، ورخَّص فيه أبو يوسف.

قال: وروي أن النبي ﷺ دعا بذلك[4].

---

[1] باب الكراهة.

[2] ونقله صاحب «الدر المختار» (٦٣٠/٢) ، وهو من أشهر كتب الحنفية ، وتمام كلام أبي حنيفة: والدعاء المأذون فيه المأمور به ما استفيد من قوله تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

[3] نقل ابن تيمية في «القاعدة الجليلة» ، ص ٨٣ ، عن القدوري قوله: المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فلا تجوز وفاقا.

[4] رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» في كتاب الصلاة ، باب صلاة أخرى ، حديث رقم (١٠٢٩) عن عمر بن هارون البلخي عن ابن جريج عن داود بن أبي عاصم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: اثنتا عشرة ركعة تصليهن من ليل أو نهار ، وتتشهد بين كل ركعتين ، فإذا تشهدت في آخر صلاتك فاثنِ على الله عز وجل وصل على النبي ﷺ واقرأ وأنت ساجد فاتحة الكتاب سبع مرات وآية الكرسي سبع مرات وقل: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) عشر مرات ، ثم قل: (اللهم إني أسألك **بمعاقد العز من عرشك** ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، واسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وكلماتك التامة) ، ثم سل حاجتك ، ثم ارفع رأسك ، ثم سلم يمينا وشمالا ، ولا تعلموها السفهاء فإنهم يدعون بها فيستجاب.

قال ابن الجوزي رحمه الله: هذا حديث موضوع بلا شك ، وإسناده مخبط كما ترى ، وفي إسناده عمر بن هارون ، قال يحيى: كذاب ، وقال ابن حبان: يروي عن الثقاة المعضلات ، ويدعي شيوخا لم يرهم ، وقد صح عن النبي النهي عن القراءة في السجود. اهـ.

قال: ولأنَّ معقِدَ العز من العرش إنما يراد به القدرة التي خلق الله بها العرش مع عظمته ، فكأنه سأله بأوصافه.[1]

وقال ابن بلدجي في «شرح المختار»[2]: ويُكره أن يدعو الله تعالى إلا به ، فلا يقول: (أسألك بفلان ، أو بملائكتك ، أو بأنبيائك) ونحو ذلك ، لأنه لا حق للمخلوق على خالقه ، أو يقول في دعائه: (أسألك بمعقد العز من عرشك).

وعن أبي يوسُف جوازه.[3]

وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه (أكره كذا) ؛ هو عند محمد[4] حرام ، وعند أبي حنيفة وأبي يوسف هو إلى الحرام أقرب ، وجانب التحريم عليه أغلب.[5]

وفي «فتاوى أبي محمد بن عبد السلام»[6] أنه لا يجوز سؤال الله سبحانه بشيء من مخلوقاته ، لا الأنبياء ولا غيرهم ، وتوقف في نبينا ﷺ لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث ، وأنه لم يَعرف صحة الحديث.[1]

قلت: ووافقه الذهبي في «تلخيص الموضوعات» (٥٢٣) ، وكذا الزيلعي في «نصب الراية» (٢٧٢/٤) ، وابن حجر في «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (٢٣٩/٢).

وقال السيوطي في «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» (٥٧/٢): موضوع.

وكذا قال الألباني في «التوسل» ، ص ٥٤ .

ورواه البيهقي في «الدعوات الكبير» (٣٩٢) (١٥٧/٢) عن عمر بن هارون به.

[1] انظر «رد المحتار» لابن عابدين (٦٣٠/٢).

[2] انظر أيضا «الفتاوى الهندية» (٢٨٠/٥).

[3] تقدم قريبا.

[4] أي محمد بن الحسن الشيباني ، من كبار تلامذة أبي حنيفة.

[5] «إتحاف السادة المتقين» (٢٨٠/٢) للزَّبيدي.

[6] ص ١٢٧ .

فإذا قرَّر الشيطان عنده أن الإقسامَ على الله به والدعاءَ به أبلغُ في تعظيمه واحترامه ، وأنجعُ[٢] في قضاء حاجته ؛ نَقَلَهُ درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله ، ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنا يَعكف عليه ، ويُوقد عليه القنديل ، ويُعلق عليه الستور ، ويَبني عليه المسجد ، ويَعبُده بالسجودِ له والطوافِ به وتقبيلِه واستلامِه والحجِ إليه والذبحِ عنده ، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادتِه واتخاذِه عيدا ومنسكا ، وأن ذلك أنفعُ لهم في دنياهُم وآخرتِهم.

---

[١] الحديث المذكور صحيح ، وليس فيه دليل على جواز التوسل بالأنبياء أو غير الأنبياء كما ظن العز بن عبد السلام ، وهو حديث عثمان بن حُنيف ؛ أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أدع الله أن يعافيني.

فقال: إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك.

قال: لا ، بل ادع الله لي.

فأمره أن يتوضأ ، وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى وتشفعني فيه وتشفعه فيَّ.

قال: فكان يقول هذا مرارا.

ثم قال بعد: أحسب أن فيها: أن تشفعني فيه.

قال: ففعل الرجل فبرأ.

رواه أحمد (١٣٨/٤) والترمذي (٣٥٧٨) وابن ماجه (١٣٨٥) ، واللفظ لأحمد ، وصححه الألباني كما في «صحيح الترمذي» ، وكذا محققو «المسند».

وقد فهم بعض الناس من قول الأعمى: (يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى) ، فهموا أنه توسَّل بجاهه ﷺ ، وهذا فهم خاطئ من وجوه:

١. أن الأعمى صرح بطلب الدعاء من النبي ﷺ إذ قال: يا نبي الله ، **ادع الله أن يعافيني** ، فقال: إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك. قال: لا ، بل **ادع الله لي**.

٢. يؤكد هذا أيضا قول الأعمى (اللهم فشفعه فيَّ) ، أي اقبل شفاعته فيْ ودعائه لي ، في أن ترد علي بصري ، فدلت هذه العبارة على أن توسل الأعمى إنما كان بدعاء الرسول ﷺ أصلا.

٣. أن معنى قول الأعمى: (وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ) أي بدعاء نبيك ، بحذف المضاف ، وهذا سائغ في اللغة العربية ، كما في قوله تعالى ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ ، أي واسأل أهل القرية ، ولو كان قصد الأعمى هو التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة لأن يأتي إلى النبي ﷺ أصلا ليطلب الدعاء منه ، بل كان يكفيه أن يقعد في بيته ويتوسل بذات النبي ﷺ ويقول مثلا: اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني وترد علي بصري ، أو نحو ذلك من الأدعية ، ولكنه لم يفعل.

٤. أن معنى قول الأعمى (وشفِّعني فيه) ، أي اقبل شفاعتي ودعائي في أن تقبل شفاعة النبي ﷺ لي في أن ترد عليَّ بصري ، فليلاحظ القارئ الكريم أن الأعمى دعا للنبي ﷺ أن يقبل الله دعاءه له ، فلو لم يكن النبي ﷺ دعا للأعمى لما كان لدعاء الأعمى للنبي ﷺ أن يقبل الله دعاءه أي معنى.

[٢] معنى أنجع أي أنفع. انظر «المعجم الوسيط».

قال شيخنا قدس الله روحه[1]: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب ، أبعدها عن الشرع أن يسأل الميتَ حاجته ويستغيث به فيها ، كما يفعله كثير من الناس.[2]

قال: وهؤلاء من جنس عباد الأصنام ، ولهذا قد يمتثل لهم الشيطان في صورة الميت أو الغائب كما يتمثَّل لعُباد الأصنام ، وهذا يحصل للكفار من المشركين ، وأهل الكتاب يدعو أحدهم من يُعظمه فيتمثل له الشيطان أحيانا ، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة ، وكذلك السجودُ للقبر والتمسحُ به وتقبيلُه.

المرتبة الثانية: أن يسأل الله به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين ، وهو بدعة باتفاق المسلمين.[3]

الثالثة: أن يسألَه نفسَه.[4]

الرابعة: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب ، أو أنه أفضلُ من الدعاء في المسجد ، فيقصُدُ زيارته والصلاةَ عنده لأجل طلب حوائجه ، فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين ، وهي محرمة ، وما علِمتُ في ذلك نزاعا بين أئمة الدين ، وإن كان كثيرٌ من المتأخرين يفعل ذلك ويقول بعضهم: قبر فلان ترياقٌ مُجرَّب.

والحكاية المنقولة عن الشافعي أنه كان يقصدُ الدعاء عند قبر أبي حنيفة من الكذب الظاهر.[5]

---

[1] يعني ابن تيمية رحمه الله ، وكلامه مثبت في «تلخيص الاستغاثة» (١/١٤٥) وما بعده.

[2] وهذه هي المرتبة الأولى.

[3] وهو أن يقول: اللهم إني أسألك بفلان أن ترزقني أو تعافيني وهكذا.

[4] وهو أن يدعو الميت مباشرة قائلا: يا فلان ارزقني أو عافني ونحو هذا.

[5] هذه الحكاية ضعيفة ، رواها الخطيب في تاريخه (١/١٢٣) ، عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة ، وأجيء إلى قبره في كل يوم ، فإذا عرضت لي حاجة صليتُ ركعتين وجئت إلى قبره ، وسألت الله تعالى الحاجة عنده ، فما تبعد عني حتى تُقضى.

هذه القصة لا يصح نسبتها للشافعي رحمه الله من ستة وجوه:

الوجه الأول: ضعف إسناد القصة ، فقد قال العلامة الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١/٧٨):

(فهذه رواية ضعيفة بل باطلة فإن عمر بن إسحاق بن إبراهيم غير معروف وليس له ذكر في شيء من كتب الرجال ، ويحتمل أن يكون هو عمرو – بفتح العين – بن إسحاق بن إبراهيم بن حميد بن السكن أبو محمد التونسي وقد ترجمه الخطيب وذكر أنه بخاري قدم بغداد حاجا سنة ٣٤١هـ ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا فهو مجهول الحال ، ويبعد أن يكون هو هذا ، إذ أن وفاة شيخه علي بن ميمون سنة ٢٤٧هـ على أكثر الأقوال فبين وفاتيهما نحو مائة سنة فيبعد أن يكون قد أدركه ، وعلى كل حال فهي رواية ضعيفة لا يقوم على صحتها دليل). انتهى باختصار.

الوجه الثاني: امتناع حصول هذه القصة ؛ فقد قال ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (٢/٦٩٢):

(إنه من الممتنع أن تتفق الأمة على استحسان فعل لو كان حسنا لفعله المتقدمون ، ولم يفعلوه ، فإن هذا من باب تناقض الإجماعات ، وهي لا تتناقض ، وإذا اختلف فيها المتأخرون فالفاصل بينهم هو الكتاب والسنة ، وإجماع المتقدمين نصا واستنباطا

{فصل في بيان أن اتخاذ العبد واساطة بينه وبين ربه هو دين الصابئة المشركين}[1]

قال المشركون منهم[2]: (لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله[3] إلا بالوسائط ، فالواجب علينا أن نتقرب إليه بتوسُّطات الرَّوحانيات القريبة منه ، وهم الروحانيون المقربون المقدسون عن المواد الجِسمانية وعن القوى الجسَدانية ، بل قد جُبلوا على الطهارة ، **فنحن نتقرب إليهم ونتقرب بهم إليه** ، فهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة ، فما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فالواجب علينا أن نُطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية ، ونهذب أخلاقنا من علائق القوى

فكيف – والحمد لله – لم ينقل عن إمام معروف ولا عالم متبع ، بل المنقول في ذلك إما أن يكون كذبا على صاحبه ، مثل ما حكى بعضهم عن الشافعي أنه قال: ... وذكر القصة). انتهى باختصار.

الوجه الثالث: ما ذكره ابن تيمية أيضا ، (أن الشافعي لما قدم بغداد لم يكن ببغداد قبر ينتاب للدعاء عنده البتة ، بل ولم يكن هذا على عهد الشافعي معروفا ، وقد رأى الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر من قبور الأنبياء والصحابة والتابعين ، من كان أصحابها عنده وعند المسلمين أفضل من أبي حنيفة وأمثاله من العلماء ، فما باله لم يتوخَّ الدعاء إلا عنده.

ثم أصحاب أبي حنيفة الذين أدركوه مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وطبقتهم ، ولم يكونوا يتحرون الدعاء لا عند أبي حنيفة ولا غيره). «مجموع الفتاوى» (٦٩٢/٢) بتصرف يسير.

الوجه الرابع: (تقدم عن الشافعي ما هو ثابت عنه في كتابه من كراهة تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة بها ، وإنما يضع مثل هذه الحكايات من يقل علمه ودينه ، وإما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يُعرف.

ونحن لو رُوي لنا مثل هذه الحكايات المسيبة أحاديث عمن لا ينطق عن الهوى لما جاز التمسك بها حتى تثبت ، فكيف بالمنقول عن غيره؟) انتهى من «مجموع الفتاوى» (٦٩٢/٢) بتصرف يسير.

الوجه الخامس: ما قاله الشيخ عبد الرحمٰن المعلمي في «طليعة التنكيل» ، ص ٥٨ – ٦٠ ، بعد أن بين ضعف سند هذه القصة:

(هذا حال السند ، ولا يخفى على ذي معرفة أنه لا يثبت بمثله شيء ، ويؤكد ذلك حال القصة ، فإن زيارته قبر أبي حنيفة كل يوم بعيد في العادة ، وتحريه قصده للدعاء عنده بعيد أيضا ؛ إنما يعرف تحري القبور لسؤال الحوائج عندها بعد عصر الشافعي بمدة ، فأما تحري الصلاة عنده ، فأبعد وأبعد).

الوجه السادس: أنه من البعيد أن الشافعي يتوسل بقبر أبي حنيفة ، وقد تقرر أن أبا حنيفة يرى تحريم ذلك ، فهو القائل: (لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول: أسألك بمعاقد العز من عرشك وأن يقول بحق فلان وبحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام).

هذا غير معقول البتة.

ذكر هذا الشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمه الله في «التوصل إلى حقيقة التوسل» ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

وبناء على ما تقدم ؛ حكم الأئمة المحققون ببطلان هذه القصة وتهافتها ، وقد نقل ابن حجر المكي هذه القصة في كتابه المسمى «الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان» في الفصل الخامس والعشرين! فاحذر وتنبه.

[1] ص ١٠١١ .

[2] أي من الصابئة.

[3] أي إلى الله تعالى.

الغضبية ، حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات وتتصل أرواحنا بهم ، فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرِض أحوالنا عليهم ، ونصبوا[1] في جميع أمورنا إليهم ، فيشفعون لنا إلى إلٰهنا وإلٰهِهِم.
وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باستمدادٍ من جهة الروحانيات ، وذلك بالتضرع والابتهال بالدعوات من الصلوات والزكوات وذبح القرابين والبَخورات والعزائم ، فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل ، بل نأخذُ من المعدِنِ الذي أخذت منه الرسل ، فيكون **حكمنا وحكمهم واحدا** ، ونحن وإياهم بمنزلة واحدة).[2]

{وجوب إفراد الله بالمحبة المتضمنة لغاية الحب وغاية الذل ، المستلزمة للعبادة}[3]

أصلُ المحبة المحمودة التي أمر الله تعالى بها وخلق خلقه لأجلها هي محبته وحده لا شريك له ، المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه ، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ، ولا يصلح ذلك إلا لله عز وجل وحده.
ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف ؛ كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به ، كالعبادة والإنابة والإخبات ، ولهذا لا يُذكرُ فيها لفظ العِشق والغرام والصبابة والشَّغف والهوى ، وقد يُذكر لها لفظ المحبة كقوله ﴿يحبهم ويحبونه﴾ ، وقولُه ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ ، وقوله ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾.
ومدار كتب الله تعالى المنزلة من أولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهي عن محبة ما يُضادها وملازمتها ، وضرب الأمثال والمقاييسِ لأهل المحبتين ، وذِكْرِ قَصصِهم ومآلِهم ومنازلِهم وثوابِهم وعقابِهم ، ولا يجد حلاوة الإيمان بل لا يذوق طعمه إلا من كان الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان) ، وفي لفظ: (لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث): من كان الله ورسوله

---

[1] أي نتوجه.

[2] ولا شك أن هذه دعوى باطلة ، لأن الله لا يحتاج إلى وسائط ولم يأمر باتخاذ الوسائط ، بل أمر بدعائه مباشرة ، وكذلك أمَرَ النبي ﷺ ، ومن المعلوم أن اتخاذ الوسائط هو فعل المشركين سواء بسواء ، كما حكى الله عنهم في سورة الزمر ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبد هم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، فاللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

[3] ص ٨٥٢-٨٤٤ .

أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يَكرهَ أن يرجعَ في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه كما يكرهُ أن يلقى في النار.[1]

وفي الصحيحين أيضا عنه قال: قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من وولده والده والناس أجمعين.[2]

ولهذا اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة وإفراد الرب سبحانه بها ، فلا يشرِك العبد بهِ فيها غيره ، والكلمة المتضمنة لهٰذين الأصلين هي الكلمة التي لا يَدخل في الإسلام إلا بها ، ولا يُعصم دمَه ومالَه إلا بالإتيان بها ، ولا ينجو من عذاب الله إلا بتحقيقها بالقلب واللسان ، وذكرُها أفضل الذكر ، كما في صحيح ابن حبان عنه ﷺ : أفضل الذكر «لا إلٰه إلا الله»[3] ، والآية المتضمنة لها ولتفضيلها سيدة أي القرآن[4] ، والسورة المختصة بتحقيقها تعدل ثُلُثَ القرآن[5] ، وبها أرسل الله سبحانه جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وشرَع جميع شرائعه ، قيامًا بحقها وتكميلا لها ، وهي التي يدخل بها العبد على ربه ، ويصير في جواره ، وهي مفزعُ أولياِئه وأعدائِه ، فإن أعداءه إذا مسهم الضر في البر والبحر فزعوا إلى توحيده وتبرءوا من شركهم ودعوه مخلصين له الدين ، وأما أولياؤه فهي مفزعهم في شدائد الدنيا والآخرة ، ولهذا كانت دعوات المكروب (لا إلٰه إلا الله العظيم الحليم ، لا إلٰه إلا الله رب العرش العظيم ، لا إلٰه إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم)[6] ، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروبٌ إلا فرج الله كربه (لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[7].

وقال ثوبان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا راعه أمرٌ قال: اللهُ ربي لا أشرك به شيئا.[8]

وفي لفظ: قال: هو الله لا شريك له.

---

[1] رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) ، واللفظ للبخاري.

[2] رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

[3] هو في صحيح ابن حبان (٨٤٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: أفضل الذكر «لا إلٰه إلا الله» ، وأفضل الدعاء «الحمد لله». والحديث رواه الترمذي (٣٣٨٣) ، وحسنه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١١٠٤).

[4] وهي آية الكرسي.

[5] وهي سورة الإخلاص.

[6] جاء ذلك في حديث رواه البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠) عن.

[7] سيأتي تخريجه من سنن الترمذي.

[8] رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٣٦) ، وحسن إسناده الشيخ سليم الهلالي في تحقيقه عليه.

وقالت أسماء بنت عميس: علَّمني رسول الله كلماتٍ أقولها عند الكرب: الله ، الله ربي لا أشرك به شيئا.[1]

وفي الترمذي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: دعوةُ يونس إذ نادى في بطن الحوت: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ، فإنه لم يدعُ بها مسلم في شيء إلا استجيب له.[2]

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعا: دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت.[3]

فالتوحيد ملجأ الطالبين ، ومفزع الهاربين ، ونجاة المكروبين ، وغِياث الملهوفين ، وحقيقته إفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع.

{فصلٌ في بيان فتنة الناس بالأنصاب والأزلام}[4]

فصلٌ ، ومن أعظم مكايده ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام التي هي من عمله ، وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك وعلق الفلاحَ باجتنابه ، فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[5].

{فصلٌ في تعريف الأنصاب والأزلام}[6]

فالأنصاب كلُّ ما نُصِب يُعبد من دون الله من حجر أو شجر أو وثن أو قبر ، وهي جمعٌ ، واحدها نُصْب ، كطُنْبٌ وأطناب.

قال مجاهد وقتادة وابن جُريج: كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُشرِّحون[7] اللحم عليها ، وكانوا يُعظمون هذه الحجارة ويعبدونها.[8]

---

[1] رواه أبو داود (١٥٢٥) ، وصححه الألباني رحمه الله.

[2] رواه الترمذي (٣٥٠٥) ، وصححه الألباني رحمه الله في تحقيقه لـ «الكلم الطيب» ، ص ١١٩ .

[3] (٢٤/٥) ، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) ، وحسنه الألباني في تحقيقه على «الأدب المفرد» و «تمام المنة» ص ٢٢٣ .

[4] ص ٣٧٥ .

[5] سورة المائدة: ٩٠ .

[6] ص ٣٧٥ – ٣٧٩ .

[7] معنى يُشرحون اللحم أي يقطعونه قطعا طوالا رقاقا. انظر «المعجم الوسيط».

[8] نقله ابن كثير عنهم بنحوه في تفسير الآية.

قالوا: وليست بأصنام ، إنما الصنم ما يُصوَّر ويُنقش.[١]
وقال ابن عباس: هي الأصنام التي تعبد من دون الله.
وقال الزجاج: حجارة كانت لهم يعبدونها ، وهي الأوثان.[٢]
وقال الفرَّاء: هي الآلهة التي كانت تعبد من أحجار وغيرها.[٣]

وأصلُ اللفظة[٤]: الشيء المنصوب الذي يقصِده من رآه ، ومنه قوله تعالى ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون﴾[٥] ، قال ابن عباس: (إلى عَلمٍ يُسرعون)[٦] ، وهو قول أكثر المفسرين.
وقال الحسن: يعني: إلى أنصابهم أيُّهم يستلمها أولا.
قال الزجاج: وهذا على قراءة من قرأ ﴿نُصُب﴾ بضمتين ، كقوله ﴿وما ذبح على النُّصُب﴾[٧] ، ومعناه: أصنام لهم.[٨]
والمقصود أن النُّصُبَ كلُّ شيء نُصِب من خشبةٍ أو حجرٍ أو علمٍ ، والإيفاض: الإسراع.
وأما الأزلامُ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: (هي قِداحٌ كانوا يستقسمون بها في الأمور)[٩] ، أي يطلُبون بها عِلْمَ ما قُسِم لهم.
وقال سعيد بن جبير: كانت لهم حصَيات ، إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها.[١٠]
وقال أيضا: هي القَدَحان اللَّذان كان يَستقسِم بهما أهل الجاهلية في أمورهم ، أحدُهما عليه مكتوب: (أمرَني ربي) ، والآخر (نهاني ربي) ، فإذا أرادوا أمرا ضربوا بها ، فإن خرج الذي عليه (أمرَني) فعَلوا ما هموا به ، وإن خرج الذي عليه (نهاني) تركوه.[١١]

---

[١] انظر تفسير ابن جرير للآية ٣ من سورة المائدة.
[٢] انظر «إعراب القرآن وبيانه» ، سورة المائدة: ٣ .
[٣] «معاني القرآن» ، تفسير سورة المعارج: ٤٣ .
[٤] أي أصلها في اللغة.
[٥] سورة المعارج: ٤٣ .
[٦] رواه ابن جرير عنه في تفسير الآية.
[٧] سورة المائدة: ٣ .
[٨] باختصار من «إعراب القرآن وبيانه» ، سورة المعارج: ٤٣ .
[٩] رواه ابن جرير عنه في تفسير الآية.
[١٠] رواه ابن جرير عنه بدون ذكر الغزو ، وإنما عموم السفر.
[١١] الذي يظهر أن هذا من كلام ابن جرير ، وهو قريب من كلام الحسن الذي رواه عنه في تفسير الآية.

قال أبو عبيد: الاستقسام طلب القسمة.

وقال المُبرِّد: الاستقسام أخْذُ كلِّ واحدٍ قَسْمه.

وقيل: الاستقسام إلزام أنفسهم بما تأمرُهم به القِداح ، كقَسَمِ اليمين.

وقال الأزهري: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾[1] ، أي: تطلبوا من جِهة الأزلام ما قُسِمَ لكم من أحد الأمرين.

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: الاستقسام بالأزلام حرام ، ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: (لا تخرج من أجل نجم كذا ، ونخرج من أجل طلوع نجم كذا) ، لأن الله تعالى يقول ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا﴾[2] ، وهذا دخولٌ في علم الله عز وجل الذي هو غيب عنا ، فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله.[3]

والمقصود أن الناس قد ابتُلوا بالأنصاب والأزلام ، فالأنصاب للشِّرك والعِبادة ، والأزلام للتكهُّنِ وطلبِ علمِ ما استأثر الله به ، هذه للعلم ، وتلك للعمل ، ودين الله سبحانه مضادٌّ لهذا وهذا ، والذي جاء به رسول الله ﷺ إبطالُهما وكسرُ الأنصاب والأزلام.

{فصلٌ في ذكر أمثلة على الأنصاب وأدلة وجوب إزالتها من قِبَلِ السلطان}[4]

فمن الأنصاب ما قد نَصبه الشيطان للمشركين[5] من شجرة أو عمود أو وثن أو قبر أو خشبة خشبة أو غير ذلك ، والواجب هدم ذلك كله ومحو أثره ، كما أمر النبي ﷺ عليا رضي الله عنه بهدم القبور المُشرفة[6] وتسويتها بالأرض[7] ، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهَيَّاج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا أدع تمثالا إلا طمستُه ، ولا قبرا مُشرفا إلا سويتُه.

---

[1] سورة المائدة: ٣ .

[2] سورة لقمان: ٣٤ .

[3] انظر «إعراب القرآن وبيانه» ، تفسير سورة المائدة: ٣ .

[4] ص ٣٧٩- ٣٨٤ .

[5] أي نصبه بإغوائه لهم ، وتزيين هذا الفعل المنكر.

[6] مشرفة أي مرتفعة عن الأرض ، وحدها الشرعي في الارتفاع شبر لتعرف فلا توطأ ، وما زاد عن ذلك فلا يجوز لأنه مؤد إلى التعظيم.

[7] علق الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله هنا على نسخته من «إغاثة اللهفان» (٢٠٩/١) بقوله: ومن أعجب كيد الشيطان أن عليا رضي الله عنه هو الذي كان يهدمها بأمر رسول الله ﷺ ، ثم أقيمت وأعيد بناؤها باسم علي وأولاد علي ، وهم والله برءاء من ذلك.

وعمَّى الصحابة بأمر عمر بن الخطاب قبر دانيال وأخفاه عن الناس.[1]
ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله ﷺ أصحابه أرسل فقطعها ، رواه ابن وضَّاح في كتابه فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة.

قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضي الله عنه.[2]
فإذا كان هذا فعل عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن[3] وبايع تحتها الصحابة رسول الله ﷺ ؛ فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قد عَظُمت الفتنة بها واشتدت البلية بها؟
وأبلغُ من ذلك أن رسول الله ﷺ هدم مسجد الضِّرار[4] ، ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فسادا منه كالمساجد المبنية على القبور ، فإنّ حكم الإسلام فيها أن تُهدم كلُّها حتى تُسوَّى بالأرض ، وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار.
وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها لأنها أسست على معصية الرسول ، لأنه قد نَهَى عن البناء على القبور كما تقدم ، فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومخالفته بناء محرم ، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصِبِ قطعا[5] ، وقد أمر النبي ﷺ بهدم القبور المشرفة كما تقدم ، فهَدمُ القباب والبناء والمساجد التي بُنيت عليها أولى وأحرى ، لأنه لعن متخذي المساجد عليها ونهى عن البناء عليها ، فيجب المبادرة والمسارعة[6] إلى هدم ما لعن رسول الله ﷺ فاعله ونهى عنه ، والله يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذُبُّ عنهما ، فهو أشد غَيْرة وأسرَع تغييرا[7].

---

[1] تقدم ذكر قصة دانيال في أول البحث في {فصل في بيان أمثلة من بعد السلف عن تعظيم القبور}.
[2] تقدم تخريج هذا الأثر في {فصل في بيان أمثلة على بُعد السلف عن تعظيم القبور}.
[3] وهي المذكورة في سورة الفتح ، آية ١٨ : ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾.
[4] وهو المذكور في سورة التوبة: ١٠٧ .
[5] بناء الغاصب هو البناء الذي يبنيه من غصب أرضا ، فهذا البناء حكمه الهدم في الفقه الإسلامي ، ثم ترد الأرض إلى المغصوبة منه.
[6] في نسخة عزير (والمساعدة) ، والمثبت من نسخة علي.
[7] كما قال النبي ﷺ : أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير ، والله أغير مني ... ولا شخص أغير من الله.

وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبرٍ وطَفْيُهُ[1] ، فإن فاعل ذلك ملعون بلعنةِ رسول الله ﷺ[2] ، ولا يصح هذا الوقف ولا يحل إثباته وتنفيذه.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي[3]: انظروا رحمكم الله ، أينما وجدتم سِدرة أو شجرة يقصدها الناس ويُعظمونها ويرجون البُرء والشفاء من قِبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق ؛ فهي ذات أنواط فاقطعوها.[4]

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمٰن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «الحوادث والبدع»[5]:

ومن هذا القِسمُ[6] أيضا ما قد عمَّ به الابتلاء ، من تزيينِ الشيطانِ للعامةِ تخليقَ[7] الحيطانِ والعُمُدِ[8] ، وسَرْجِ[9] مواضِعَ مخصوصةٍ من كل بلدٍ يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحدا ممن شُهِرَ بالصلاح والوِلاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم مُتقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا الحد إلى أن يَعْظُمَ وقعُ تلك الأماكن في قلوبهم فيُعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجِهم بالنذر لها ، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر.

وفي مدينة دمشق – صانها الله تعالى – من ذلك مواضع متعددة ، كـ «عوينة الحمى» خارج «باب توما» ، والعمود المُخَلَّق داخل «باب الصغير» ، والشجرة الملعونة اليابسة خارج «باب النصر» في نفس قارعة الطريق ، سهَّل الله تعالى قطعَها واجتثاثَها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث.

رواه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

[1] أي إطفاء نوره.

[2] تقدم الكلام على مسألة إسراج القبور.

[3] هو محمد بن الوليد الأندلسي الطرطوشي ، شيخ المالكية ، له كتاب مشهور في التحذير من البدع وهو «كتاب الحوادث والبدع» ، توفي رحمه الله سنة ٥٢٠ . انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٩/٤٩٠).

[4] كتاب «الحوادث والبدع» ، ص ٣٨ – ٣٩ .

[5] وهو المسمى: «الباعث على إنكار البدع والحوادث» ، الفصل الخامس ، ص ٣٤ – ٣٦.

[6] يعني القسم الأول من البدع ، فقد قسم أبو شامة البدع والمحدثات المستقبحة إلى قسمين ، القسم الأول وهو الذي تعرف العامة والخاصة أنه بدعة محدثة ، إما محرمة وإما مكروهة ، وقسم يظنه معظم الناس إلا من عصم الله أنها عبادات وقربا وطاعات وسننا.

[7] تقدم أن التخليق هو وضع الخَلوق وهو الطيب ، وأعظم أنواعه الزعفران.

[8] أي الأعمدة.

[9] أي إضائتها بالسُّرُج.

ثم ساق حديث أبي واقد أنهم مروا مع رسول الله ﷺ بشجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط ، وأنهم قالوا لرسول الله ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

فقال النبي ﷺ : الله أكبر! هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾[1] ، لتركبن سَنن من كان قبلكم. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.[2]

ثم ذكر ما صنعه بعض أهل العلم ببلاد إفريقية ، أنه كان إلى جانبه عين تسمى «عين العافية» ، كان العامة قد افتتنوا بها ، يأتونها من الآفاق ، فمن تعذَّر عليه نكاح أو ولد قال: امضوا بي إلى «العافية» ، فتعرَّف فيها الفتنة ، فخرج في السَّحر فهدمها ، وأذَّن للصبح عليها ، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأسا ، قال: فما رُفِع لها رأسٌ إلى الآن. انتهى.[3]

وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب ، فيسر الله سبحانه كسرها على يدِ شيخ الإسلامِ[4] وحزبِ الله الموحدين ، كالعامود المخلَّق ، والنُّصْب الذي كان بمسجد «النارنج» عند المُصلَّى يعبده الجهال ، والنصْب الذي كان تحت الطاحون الذي عند مقابر النصارى ، ينتابه الناس للتبرك به ، وكان صورةُ صنم في نهر «القلُّوط» ينذُرون له ويتبركون به ، وقطع الله سبحانه النُّصْب الذي كان عند «الرحبة» ، يُسرجُ عنده ويَتبرك به المشركون ، وكان عمودا طويلا على رأسه حَجرٌ كالكرة ، وعند مسجد «درب الحجر» نُصْبٌ قد بُني عليه مسجد صغير يعبده المشركون ، يسَّر الله كسره.

فما أسرعَ أهلَ الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، ويقولون: (إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر) ، أي: تقبل العبادة من دون الله تعالى ، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ، ويتمسحون بذلك النصُب ويستلمونه.

ولقد أنكر السلف التمسح بحجر المقام الذي أمر الله أن يُتخذ منه مصلى ، كما روى الأزرقي في كتاب «تاريخ مكة» عن قتادة في قوله تعالى ﴿واتخِذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾[5] ، قال: إنما أُمِروا أُمِروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئا ما تكلَّفته الأمم قبلها ، ذُكر لنا من رأى أثره وأصابعه[6] ، فما زالت هذه الأمة تَمسَحه حتى اخلولق[1].[2]

---

[1] سورة الأعراف: ١٣٨ .

[2] تقدم تخريجه.

[3] كلمة (انتهى) ليست في نسخة عزير ، والمثبت من نسخة علي.

[4] أي ابن تيمية رحمه الله.

[5] سورة البقرة: ١٢٥ .

[6] أي أثر إبراهيم وأصابعه عليه السلام ، وكان هذا قبل تمسح الناس به ، الأمر الذي آل إلى محو تلك الآثار.

وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب فتنة أنصاب القبور ، وهي أصل فتنة عِبادة الأصنام ، كما قاله السلف من الصحابة والتابعين ، وقد تقدم.

{غربة الدين بعد مضي العهد النبوي}[3]

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره ؛ عَلِم أن بين السَّلف وبين هؤلاء الخُلوف من البعد أبعدَ مما[4] بين المشرق والمغرب ، وأنهم على شيء والسلف على شيء ، كما قيل:

سارت مُشرِّقةً وسِرتَ مغربًا شتَّانَ بين مُشرِّقٍ ومُغرِّبِ

والأمر – والله – أعظم مما ذكرنا.

وقد ذكر البخاري في «الصحيح» عن أم الدرداءِ رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء مُغضبا فقلت له: مالَكَ؟

فقال: والله ما أعرف فيهم شيئا من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يُصلُّون جميعا.[5]

وروى مالك في «الموطأ» عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف شيئا مما أدركتُ عليه الناس إلا النداء بالصلاة.[6]

يعني الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الزهري: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي ، فقلت له: ما يبكيك؟

فقال: ما أعرف شيئا مما أدركتُ إلا هذه الصلاة ، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت. ذكره البخاري.[7]

---

[1] معنى اخلولق أي بلى وصار أملسا من كثرة ما يُتمسح به.

[2] باب ما جاء في الأثر الذي في المقام ، وقيام إبراهيم عليه السلام عليه ، (٥٣٢/١).

[3] ص ٣٧٢- ٣٧٥ .

[4] في نسخة عزير (ما) ، والمثبت من نسخة (علي).

[5] رواه البخاري (٦٥٠) عن سالم قال: سمعت أم الدرداء تقول: دخل علي أبو الدرداء وهو مغضب فقلت: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئا إلا أنهم يصلون جميعا.

ورواه أحمد أيضا (١٩٥/٥).

[6] رواه مالك في باب «ما جاء في النداء بالصلاة» ، عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف شيئا مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة. وصحح إسناده الشيخ علي الحلبي في تعليقه على «إغاثة اللهفان» ، ص ٣٨١ .

وأبو سهيل هو نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي.

[7] (٥٣٠).

وفي لفظ آخر: ما كنت أعرف شيئا على عهد رسول الله ﷺ إلا قد أنكرته اليوم.

وقال الحسن البصري: سأل رجل أبا الدرداء رضي الله عنه فقال: رحمك الله ، لو أنَّ رسول الله ﷺ بين أظهُرِنا هل كان ينكِر شيئا مما نحن عليه؟

فغضب واشتد غضبه وقال: وهل كان يعرف شيئا مما أنتم عليه؟

وقال المبارك بن فَضالة: صلى الحسن الجمعة وجلس فبكى ، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟

فقال: تلومونني على البكاء ، ولو أن رجلا من المهاجرين اطّلع من باب مسجِدِكم ما عرف شيئا مما كان عليه على عهد رسول الله ﷺ أنتم اليوم عليه إلا قِبلتَكم هذه.

وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

كيف أنتم إذا لبِسَتكم فتنةٌ ، يربو فيها الصغير ويهرَم فيها الكبير ، ويتخذها الناس سُنةً ، فإذا غُيِّر منها شيءٌ قيل: غُيِّرت السُّنة.[1]

وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السُّنة فلا عبرة به ولا التفات إليه ، فإن العمل قد جرى على خلاف السُّنة منذ زمن أبي الدرداء وأنس كما تقدم.

وذكر أبو العباس أحمد بن يحيى: حدثني محمد بن عبيد بن ميمون ، حدثني عبد الله بن إسحاق الجعفري قال: كان عبد الله بن الحسن يُكثر الجلوس إلى ربيعة[2] ، قال: فتذاكروا يوما السُّنن ، فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا.

فقال عبد الله: أرأيت إن كَثُر الجهال حتى يكونوا هم الحكام ، فهم الحجة على السنة؟

فقال ربيعة: أشهد أن هذا كلامُ أبناء الأنبياء.[3]

==========

قال منتقي الجزء: تم بحمد الله جزء «تلاعب الشيطان بعقول القُبوريين» ، نفع الله به قارئه ومنتقيه وناشره ، وأماتنا وإياهم وجميع المسلمين على التوحيد الخالص ، آمين.

---

[1] رواه الدارمي في المقدمة ، باب تغير الزمان وما يحدث فيه ، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٥٢/٧) ، واللفظ له ، والحاكم (٥١٤/٤-٥١٥) والشاشي (٩٠/٢) ، وتمام الأثر أنهم قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمٰن؟ قال:

إذا كثرت قراؤكم وقلت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم وقلت فقهاؤكم ، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة.

[2] هو ربيعة الرأي ، أحد شيوخ الإمام مالك.

[3] أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ، (٣٧٢/٢٧) ، في أسماء آباء العبادلة ، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» ، باب تعظيم السنن والحث على التمسك بها.

ثبت مراجع الكتاب

١. سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، الناشر: دار القلم – دمشق

٢. فضل الصلاة على النبي ﷺ ، إسماعيل بن إسحاق القاضي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت

٣. الأدب المفرد ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق سمير بن أمين الزهيري ، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض

٤. كتاب الدعوات الكبير ، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق بدر البدر ، الناشر: مركز المخطوطات والتراث والوثائق – الكويت

٥. تاريخ دمشق ، الحافظ ابن عساكر ، الناشر: دار الفكر – بيروت

٦. كتاب الأصنام ، هشام بن محمد الكلبي ، الناشر: المجمع الثقافي ، الإمارات

٧. تاريخ مكة ، محمد بن عبد الله الأزرقي ، تحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، الناشر: مكتبة الأسدي – مكة.

٨. المسند ، الهيثم بن كليب الشاشي ، تحقيق د. محفوظ الرحمٰن زين الله ، ط ١ ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة

٩. كتاب الحوادث والبدع ، محمد بن الوليد الطرطوشي ، تحقيق علي بن حسن الحلبي ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام

١٠. البدع والنهي عنها ، ابن وضاح القرطبي ، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم ، الناشر: مكتبة ابن تيمية – جدة

١١. الباعث على إنكار البدع والحوادث ، عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي ، تحقيق بشير عيون ، الناشر: مكتبة المؤيد – الرياض

١٢. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل ، ط ٥ ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض

١٣. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. ربيع بن هادي المدخلي ، الناشر: مكتبة لينة – مصر

١٤. الاستغاثة في الرد على البكري ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق عبد الله السهلي ، ط١ ، الناشر: مدار الوطن – الرياض

١٥. إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي ، الناشر: دار الكتاب العربي – لبنان

١٦. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق: أسامة بن عطايا العتيبي ، الناشر: دار العاصمة – الرياض

١٧. تحقيق كلمة الإخلاص ، ابن رجب الحنبلي ، تحقيق إبراهيم بن عبد الله الحازمي ، الناشر: دار الشريف – الرياض

١٨. التوسل ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٥ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت

١٩. تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط٤ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت

٢٠. أحكام الجنائز ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط سنة ١٤١٢ ، مكتبة المعارف – الرياض

٢١. الكلم الطيب ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض

٢٢. الموضوعات ، ابن الجوزي ، تحقيق د. نور الدين بن شكري ، الناشر: مكتبة أضواء السلف ومكتبة الندمرية – الرياض

٢٣. تلخيص الموضوعات ، شمس الدين الذهبي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

٢٤. المغني ، ابن قدامة المقدسي ، تحقيق د. عبد الله التركي و د. عبد الفتاح الحلو ، الناشر: دار هجر – مصر

٢٥. السيرة النبوية ، ابن هشام ، الناشر: دار الخير – دمشق

٢٦. البداية والنهاية ، عماد الدين ابن كثير ، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة – الرياض

الموضوع
مقدمة الكتاب
فهرست عام لمواضيع الكتاب
مقدمة في بيان حقوق الصالحين ، وبيان ما يضادها
• حقوق النبي ﷺ السبعة عشرة
• طاعة النبي ﷺ وأحوال الناس فيها
• لوازم الوِلاية
• مفاهيم خاطئة عن الوِلاية
• تفاوت أولياء الله في الولاية
• أفضل الأولياء
• أولى الناس بوصف الوِلاية
• الأولياء ليس لهم ميزة
• الأولياء ليسوا معصومين
• الوِلاية والصلاح أمر قلبي غيبي لا يعلمه إلا الله

- التعدي في تعظيم الصالحين (الغلو فيهم)
- فصلٌ في النهي عن الغلو
- أحوال الناس في تعظيم الصالحين
- تحذير النبي ﷺ أمته من الغلو
- فصلٌ في اتِّباع الصحابة لنبيهم في اجتناب الغلو في الأنبياء والصالحين
- فصلٌ في بيان مظاهر الغلو في الأنبياء والصالحين

جزء: تلاعب الشيطان بعقول القبوريين

- تعريف معنى الإله
- الحاجة إلى التوحيد
- التوحيد سبب الطمأنينة والأمن
- الحاجة إلى التوحيد أشد من الحاجة إلى الغذاء
- وجوه بطلان دعاء غير الله الثمانية:
  - الوجه الأول: عجز المدعوِّين من المخلوقين
  - الوجه الثاني: التعلق بغير الله مُضِرٌّ إذا زاد عن الحد والحاجة

- الوجه الثالث: أن المخلوق المعبود يَخذل من عبده يوم القيامة
- الوجه الرابع: أن المخلوق لا يريد منفعة المخلوق لذاته ، أما الله عز وجل فيريد ذلك
- الوجه الخامس: جهل المعبود بحاجة من عبده
- الوجه السادس: أن المعبودين من غير الله لا يهمهم إلا قضاء حوائجهم من عابديهم وإن أضر ذلك بعابديهم
- الوجه السابع: أن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الإلٰهية وسوء ظن برب العالمين
- الوجه الثامن: إعراض القرون الثلاثة الأولى المفضلة عن دعاء الموتى أو الدعاء عندهم

- فصل في ذكرِ أمثلة على بُعد السلف عن تعظيم القبور
- الشرك نجس وخبث
- الذنوب والمعاصي لا تستلزم تنقص جانب الربوبية ، بخلاف الشرك في العبادة ، فإنه يستلزم ذلك
- عشق الصور نوع تعبد لها
- من بركة التوحيد ؛ أن الشيطان ليس له سلطان على المُوحِّد

- الفتنة بالقبور هي أعظم وأول فتنة فَتَن الشيطان بها الناس عن التوحيد
- إبطال قول من قال إن النهي عن الصلاة في القبور إنما هو لأجل نجاستها
- فصل في بيان مكيدة اتخاذ القبور أعيادا
- فصل في بيان مفاسد اتخاذ القبور أعيادا
- فصل في بيان مخالفة عباد القبور لما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته
- فصل في بيان مجمل مفاسد تعظيم القبور
- فصل في بيان صفة زيارة القبور الشرعية والبدعية
- فصلٌ في ذكر شيء من حقوق الميت على الحي
- فصل في بيان الفرق بين المقصود من الزيارة الشرعية والشركية
- غربة الدين بعد مضي العهد النبوي
- فصل في تعريف الأنصاب والأزلام
- فصل في بيان فتنة الناس بالأنصاب والأزلام
- فصل في ذكر أمثلة على الأنصاب وأدلة وجوب إزالتها من قِبَل السلطان
- فصل في بيان أن النهي عن الغلو في أصحاب القبور ليس فيه غضٌّ من أصحابها

- فصل في بيان صفة التعظيم الشرعي لأصحاب القبور
- فصل في بيان أسباب الوقوع في الغلو بالقبور
- فصل في بيان أن اتخاذ الوسائط هو دين الصابئة الملاحدة
- وجوب إفراد الله بالمحبة المتضمنة لغاية الحب وغاية الذل ، المستلزمة للعبادة
- قصة تحول الناس من التوحيد إلى الشرك منذ عهد نوح إلى بعثة النبي ﷺ

ثبت مراجع الكتاب